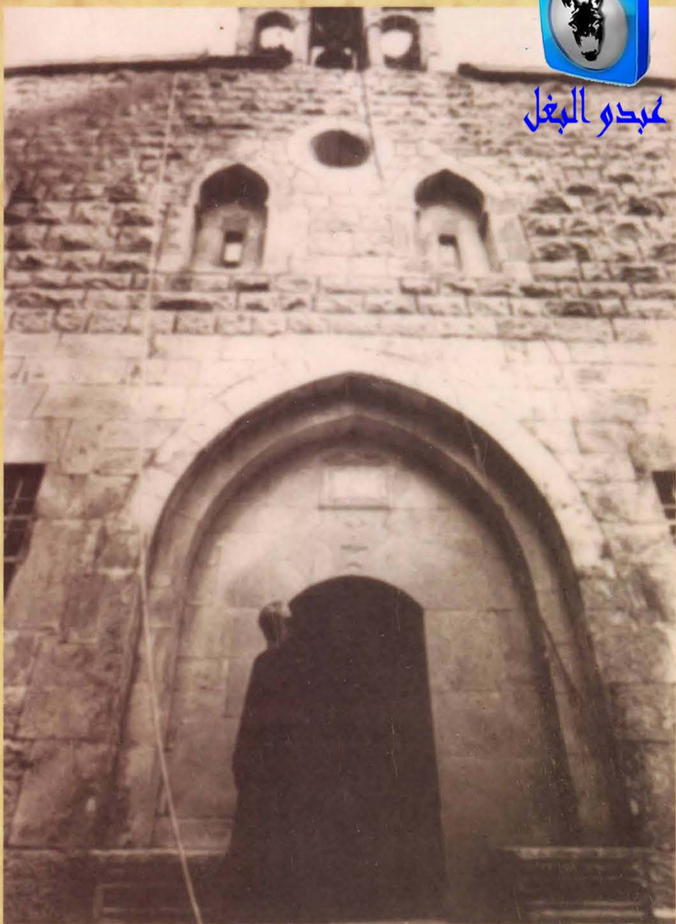
كمال الصليبي

الموارنة

صُورة تاريخيّة



دار نلسن

كمال الصليبي

الموارنة

صُورة تاريخيّة

دار نلسن

- تصميم الكتاب: كارينا ديزاين- السوير
- الإشراف والإخراج الفني دار نلسن- السوير- لبنان
- تصميم الغلاف: نورما بختي
- صورة الغلاف: دير مار أنطونيوس قزحيا- إهدن
- طبع في بيروت — الطبعة الأولى ٢٠١١
- البريد الالكتروني: darnelson@hotmail.com

دار نلسن

المؤسس يوسف سلامة (١٩٢٥-٢٠٠٠)

المحتوى

تصدير

كتبت هذه الدراسة أصلاً عام ١٩٦٩ وهي مستقاة من محاضرتين ألقيتهما في دير مار ضومط في رومية المتن- لبنان. ثمّ طلبها منّي الصديق الشاعر يوسف الخال لإصدارها في ملف النهار في العام التالي. وهكذا كان. وقد قمت مؤخّراً بتصحيح النصّ بمساعدة أخي منير الصليبي وتدقيقه للطبعة الجديدة التي تقدمها دار نلسن للنشر إلى القارئ.

كمال الصليبي

بيروت، أيار ٢٠١١

الطبيعة الواحدة والطبيعتان

في غضون القرن الرابع للميلاد، اتخذت الامبراطورية الرومانية لنفسها عاصمة جديدة في القسطنطينية، المدعوة سابقاً بيزنطيا، ثم نبذت الوثنية نهائياً واعتنقت المسيحية. فأصبح الأباطرة الرومان حماة الدين المسيحي. وكان للكنيسة المسيحية في الأساس أربعة مراكز بطريركية أنشأها الرسل، وهي رومية والاسكندرية وإنطاكية والقدس، فأضيف إليها عام ٣٨١ بطريركية القسطنطينية. كان ذلك في عهد الامبراطور ثيودوسيوس الأول، المعروف بالكبير. وما أن توفي ثيودوسيوس هذا عام ٣٩٥ حتى انقسمت الامبراطورية الرومانية بين ولديه هونوريوس واركاديوس، فتبوأ الأول عرش الامبراطورية في رومية، وتبوأه الثاني في القسطنطينية. وعام ٤٧٦ سقطت رومية في الغرب، فاجتاحت قبائل

الفرنجة مقاطعة غاليا (وهي اليوم فرنسا)، وفرق أخرى من الغوط مقاطعة ايباريا (وهي اليوم اسبانيا والبرتغال)، وقبائل الفندال مقاطعة افريقيا. واستمرت الدولة الرومانية في القسطنطينية، حيث تبوأ العرش عام ٥٢٧ الامبراطور يوستينيانوس الأول. فجدّ هذا الامبراطور النشيط في إرجاع الامبراطورية إلى سابق مجدها وتمكّن، مع السنين، من استعادة جميع المقاطعات التي كانت لرومية في الجزء الغربي من حوض البحر المتوسط ما عدا غاليا. وهكذا اجتمعت المراكز البطريركية الخمسة تحت حكم يوستينيانوس كما كانت في أيام ثيودوسيوس الكبير، فتعزز شأن المسيحية برعايته، وبدت الامبراطورية الرومانية كأنها تشمل العالم المسيحي بأسره.

غير أن انجازات يوستينيانوس لم يكتب لها الدوام. فما أن توفي هذا الامبراطور الكبير عام ٥٦٥ حتى عادت الاوضاع في الدولة الرومانية إلى التدهور. فاجتاحت ايطاليا القبائل اللومباردية، وسقطت ايباريا من جديد في أيدي الغوط. وفي الشرق تجددت الحرب بين الدولة الرومانية والدولة الساسانية في بلاد فارس،

فانهارت قوى الرومان أمام الفرس. وما ان حلّ القرن السابع حتى اجتاح هؤلاء سوريا ومصر، وأخذوا الصليب المقدس من القدس ونقلوه إلى عاصمتهم المدائن، على نهر دجلة. وعام ٦١٠ وصلت جيوشهم إلى اقصى غرب الأناضول، مهددة القسطنطينية. وفي ذلك العام نفسه دعى القائد الكبير هرقل من افريقيا إلى القسطنطينية ليتبوأ العرش، فسارع إلى اتخاذ التدابير اللازمة لرد الفرس عن القسطنطينية. وعمد هرقل بعد ذلك إلى إسترجاع بلاد الأناضول وسوريا منهم، فاستمرت الحروب بينهم حتى عام ٦٢٨.

وكان من أهم الاسباب التي ادت إلى انهيار سوريا ومصر امام الفرس بعد وفاة الامبراطور يوستينيانوس ذلك الانقسام الذي طرأ في عهده على الكنيسة المسيحية في هذين القطرين. ففي عام ٥٣٧، السنة العاشرة من ملكه، انقسمت كنيسة الاسكندرية بين القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح (اي أن المسيح هو الله بشكل إنسان) والقائلين بالطبيعتين (أي ان المسيح هو الله وإنسان في آن واحد)، فانتخبت كل فئة بطريركاً

خاصاً بها. وعام ٥٥٧ أو ٥٥٨ تمّ انقسام مماثل في كنيسة انطاكية. وكانت الدولة الرومانية قد اعتنقت مذهب الطبيعتين بعدما أقرّ هذا المذهب في المجمع الرابع الخلقيدوني، وهو المجمع ذاته الذي حكم ضد مذهب الطبيعة الواحدة. فدعي القائلون بالطبيعتين في سوريا ومصر "ملكانيين" أو "ملكيين" من كلمة "ملكا" في السريانية، بمعنى ملك، نسبة إلى امبراطور القسطنطينية، حامي المذهب الخلقيدوني. أما القائلون بالطبيعة الواحدة، فالمصريون منهم درجت تسميتهم بالاقباط، من الكلمة اليونانية لمصر Egyptos، والسوريون اطلق عليهم اسم السريان، من سوريا، أو اليعاقبة، نسبة إلى يعقوب البرادعي، احد كبار دعاة مذهب الطبيعة الواحدة ومنظم الكنيسة القائلة به. وجدير بالذكر ان هذا الانقسام في كنيستي الاسكندرية وانطاكية عكس في وقته نقمة شعبية واسعة النطاق، في مصر وسوريا، ضد الحكم الروماني. لذلك اطلق الاقباط واليعاقبة على مواطنيهم الذين بقوا على المذهب الخلقيدوني اسم الملكية، اشارة إلى تبعيتهم للدولة الرومانية وخنوعهم لها. وكان من مظاهر حقد

الاقباط واليعاقبة على الدولة الرومانية أن الفريقين وقفا جانباً عندما أقدم الفرس على اجتياح سوريا ومصر، ولم يشتركا في الدفاع عنهما.

وتنبّه الامبراطور هرقل، خلال حروبه مع الفرس، إلى خطورة الانقسام الكنسي في سوريا ومصر وما ينجم عن هذا الانقسام من احراج للدولة الرومانية وللقضية المسيحية الكبرى، فسعى إلى استمالة اليعاقبة والاقباط والحد من نقمتهم بالتنازل بعض الشيء عن الموقف الخلقيدوني بشأن الطبيعتين في المسيح. وبناءً على اقتراح سركيس الأول، بطريرك القسطنطينية، وبموافقة هونوريوس الأول، بابا رومية، دعا الامبراطور إلى تفسير جديد للمبدأ الخلقيدوني يجعل للمسيح طبيعتين يصدر عنهما فعل واحد. وحثّ الامبراطور جميع المسيحيين على القبول بهذا التفسير والكفّ عن الجدل حول الطبيعة والطبيعتين. واصدر عام ٦٣٨ مرسوماً يجبر المؤمنين على القبول بالتفسير الجديد ويوضح أن الفعل الواحد في المسيح إنما يصدر عن مشيئة واحدة. غير أن مرسوم هرقل لم يحلّ المشكلة، بل زادها تعقيداً.

ذلك أن القائلين بالطبيعة الواحدة والقائلين بالطبيعتين رفضوا الحل الوسط. أما الذين قبلوا به، فأصبحوا فئة ثالثة في الكنيسة ما لبثت أن دخلت طرفاً ثالثاً في الجدل.

كان القصد من المجيء بفكرة المشيئة الواحدة اعادة وحدة الكنيسة المسيحية في وجه الخطر الفارسي المجوسي. لذلك لا يجوز أن تسمى هذه الفكرة اول أمرها بدعة. فالبدعة تقصد الفتنة، والفتنة تقود إلى الانقسام. أما فكرة المشيئة الواحدة، فكان القصد منها إخماد الفتنة والرجوع عن الانقسام. لذلك لقيت الفكرة التي جاء بها بطريرك القسطنطينية قبولاً عند بابا رومية وغيره من الاحبار. ولذلك أيضاً تجاوبت مع الفكرة فئات شعبية في مختلف أنحاء الامبراطورية تحمست لمساندة الامبراطور هرقل في كفاحه البطولي ضد الفرس المجوس باسم المسيحية. غير أن بعض الاحبار المتحمّسين للمذهب الخلقيدوني شاؤوا أن يرفضوا الفكرة الجديدة رفضاً باتا وأن يقاوموها بضراوة، ولو سبَّب ذلك احراجاً شديداً للامبراطور. وكان من جملة الذين آثروا التمسك بالدقة اللاهوتية في أحرج الاوقات، ولم يعتبروا ان للضرورة

احكاماً، الراهب صفرونيوس الذي نصَّب عام ٦٣٣ بطريركاً على القدس. وفيما استمرّ صفرونيوس يعاند هرقل، تغلَّب العرب على عسكر الامبراطورية في معركة اليرموك عام ٦٣٦. وقام صفرونيوس نفسه، عقب هذه المعركة، بتسليم مدينة القدس إلى الفاتحين.

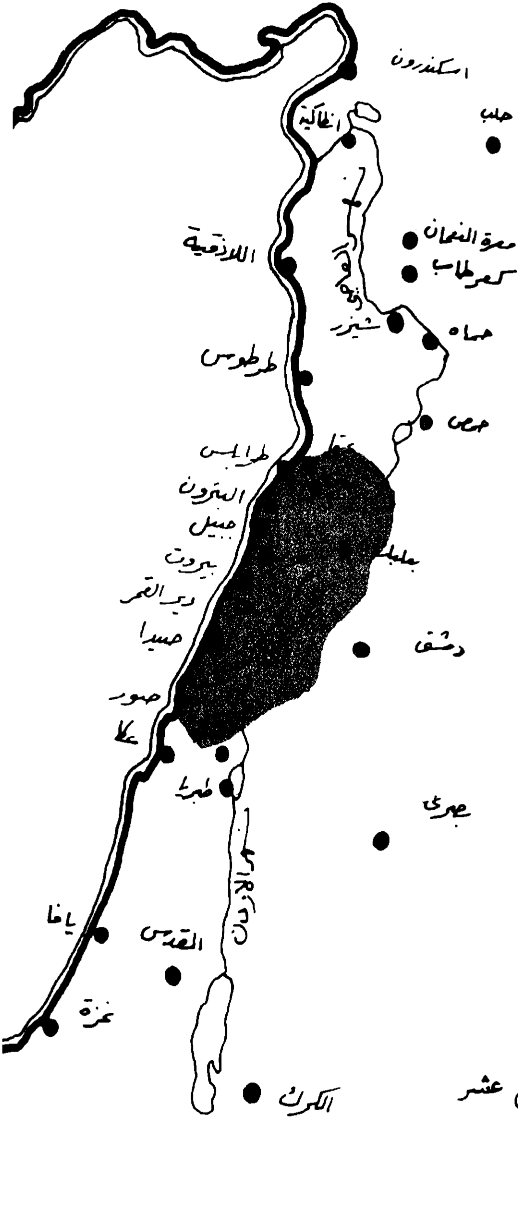
أما أجداد الموارنة، فكانوا من أنصار هرقل الذين اعترفوا بأحكام الضرورة، فآثروا الدفاع عن كيان المسيحية والسعي لاعادة وحدة الكنيسة على الدقة اللاهوتية.



مواطن الموارنة
بين القرن السابع
والقرن العاشر



مواطن الموارنة
بين القرن العاشر
والقرن السادس عشر



مواطن الموارنة
بعد القرن السابع عشر

فمن كان هؤلاء الموارنة الأوائل؟ جلّ ما يعرفه التاريخ عنهم هو أنهم نشأوا كطائفة أصلاً في وادي العاصي، في بلاد حمص وحماه، وأن نسبتهم هي إلى مار مارون، من أولياء القرن الرابع، وقد كانت له شهرة في زمانه في تلك الانحاء[١]. وكان لمار مارون تلاميذ وأتباع، فأنشأوا باسمه، في مكان ما قرب حماه، ديراً "ذا بنيان عظيم حوله أكثر من ثلاثمائة صومعة فيها رهبان، و... فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم"[٢].

وأصبحت لهذا الدير، على ما يبدو، زعامة روحية على أهل القرى المجاورة، فانتسبوا مع الزمن اليه

---

[١] أنظر ترجمته، مع ذكر المصادر، في فؤاد افرام البستاني، "مار مارون"، بيروت، ١٩٦٥.

[٢] المسعودي، "التنبيه والاشراف"، القاهرة ١٩٣٨، ص ١٣١.

وتسمّوا بالموارنة. ولما كان معظم هؤلاء الموارنة الاوائل، على الارجح، من الفلاحين البسطاء، لم يعرهم المؤرخون المعاصرون اهتماماً، فنسي امرهم. اما دير مار مارون، فخرب مع الزمن "بتواتر الفتن من الأعراب وحيف السلطان"[٣].

ومن المرجح أن الموارنة لم يصبحوا طائفة مستقلة، لها كيانها الكنسي الخاص، قبل القرن السابع. ففي غضون ذلك القرن العاصف، ظهر الإسلام وأنزل العرب بالحكم الروماني – المسيحي في سوريا، ومصر ضربة قاضية. فتضعضعت أحوال المسيحية في هذين القطرين، وانقطعت الصلات المنتظمة بين بطاركة القسطنطينية وبطاركة أنطاكية والقدس والاسكندرية من الملكية كما انقطعت بين هذه الكنائس الثلاث وكنيسة رومية. وكانت رومية في ذلك الوقت منشغلة بأمور الكنيسة في الغرب، وضعفت علاقتها بالكنائس الشرقية بعد انهيار حكم الأباطرة في ايطاليا. ولربما كان في تلك الفترة العصيبة التي تلت الفتح العربي لسوريا ومصر ان التفّ أبناء قرى وادي العاصي حول رهبان دير مار مارون متأملين

---

(٣) المصدر ذاته، ص ١٣١-١٣٢.

قيادتهم، وتكوّنت بذلك نواة الكنيسة المارونية.

وكان رهبان دير مار مارون، على ما يظهر، قد ساندوا هرقل في سياسته الكنسية وقبلوا بمذهب المشيئة الواحدة الذي حاول فرضه. ولما جاء الفتح العربي وانسلخت سوريا ومصر عن جسم الامبراطورية الرومانية – المسيحية، فتجمدت الاوضاع الكنسية تحت حكم الخلفاء في كل من القطرين، استمرت كل فئة مسيحية هناك تقول القول الذي كانت تقول به قبل الفتح العربي. وهكذا بقي رهبان دير مار مارون متمسكين بمذهب المشيئة الواحدة، على الاقل في شكله البدائي المشدد على الفعل الواحد دون تحديد للمشيئة[٤]، ظنّاً منهم انه المذهب الصحيح المقبول به من القسطنطينية ورومية. اما في القسطنطينية ورومية، فاتضح مع الزمن أن مذهب المشيئة الواحدة الذي جيء به أصلاً كحل وسط لاعادة وحدة الكنيسة في سوريا ومصر لم يعد نافعاً لهذه الغاية بعد خروج كلا القطرين، بسبب الفتح العربي، عن سلطة القسطنطينية. زِد على ذلك أن الاستمرار في الاصرار

---

[٤] أنظر مقتل المطران مخايل ضومط، "الموارنة"، بيروت، ١٩٥٥، ص ٥–٧.

على فرض هذا المذهب على كنيسة القسطنطينية بعد وفاة هرقل عام ٦٤١ كاد أن يخلق انقساماً جديداً هناك. ولذا تقرّر أخيراً العدول نهائياً عن هذا المذهب. وانعقد المجمع السادس في القسطنطينية عام ٦٨٠، فحرّم القول بالمشيئة الواحدة وأقرّ القول بالمشيئتين. أما في وادي العاصي، حيث لم يتّضح موقف الكنيسة المسكونية من هذه القضية، فاستمرّ القول بالمشيئة الواحدة بين الشعب الماروني، على شكل ما على الاقل، قروناً طويلة[٥].

---

(٥) قابل مع نظرية المطران بطرس ديب حول الموضوع في كتابه:
Histoire de l'église maronite, Beyrouth, ١٩٦٢, PP. ١٩-٥٨.

أوّل البطاركة يوحنا مارون

لم يرد اسم الموارنة في مقررات المجمع السادس. ولم يأتِ أي مؤرخ على ذكرهم قبل القرن التاسع. كما لم تصلنا أية وثائق أصيلة تتعلق بالكنيسة المارونية قبل القرن الثالث عشر. ولم يقم من أبناء الطائفة في قرونها الأولى مؤرخ غير المدعو قيس الماروني، وقد ضاع تاريخه. قال المسعودي، من مؤرخي القرن العاشر: "ولم أرَ للمارونية في هذا المعنى كتاباً مؤلفاً غيره"[٦]. ويتضح من الاخبار المروية عن مصادر متاخرة أن يوستينيانوس الثاني المعروف بالاخرم، الذي تبوأ عرش القسطنطينية عام ٦٨٥، أرسل بعد الاتفاق الذي تمّ بينه وبين الخليفة عبد الملك بن مروان في العام الأول من ملكه عسكراً إلى سوريا،

---

[٦] المسعودي، "التنبيه والاشراف"، القاهرة، ١٩٣٨، ص ١٣٢.

فخرّبوا دير مار مارون وشتّتوا رهبانه، ولجأ عدد من هؤلاء، وعلى رأسهم يوحنا مارون السرومي، إلى جبل لبنان. ويوحنا مارون هذا، على ما يروى، هو أول بطاركة الموارنة، وقد توفي في كفرحي، في بلاد البترون، عام ٧٠٧[٧].

ومما لاشك فيه أن الموارنة أخذوا يستقرون في لبنان منذ زمن مبكر. غير انهم بقوا منتشرين في وادي العاصي حتى القرن العاشر. وقد ذكر المسعودي الذي توفي عام ٩٥٦، أن أكثر الموارنة في أيامه كانوا "في جبل لبنان وسنير وحمص وأعمالها كحماة وشيزر ومعرة النعمان"[٨].

إلا أن أمرهم في وادي العاصي لم يدم طويلاً على ما يظهر. ففي ٩٦٣ تبوّأ عرش القسطنطينية الامبراطور نقفور الثاني المدعو نقفور فوقا، ثم تبعه عام ٩٦٩ يوحنا الأول المعروف بالشمشقيق. وكانت الدولة العباسية في ذلك الوقت قد حلّ بها الضعف والانحلال، فجد نقفور فوقا، ومن بعده الشمشقيق، في إسترجاع

---

[٧] طوبيا العنيسي، "سلسلة تاريخية لبطاركة انطاكية الموارنة"، رومية، ١٩٢٧، ص ١٤.

[٨] المسعودي، "التنبيه والاشراف"، القاهرة، ١٩٣٨، ص ١٣١.

سوريا من المسلمين وضمّها من جديد إلى امبراطورية القسطنطينية، أو مملكة الروم كما دعاها العرب. وتوفّق الاثنان في حملاتهم، فعادت معظم الانحاء السورية تحت حكم الروم مدة قرن كامل. وفي هذه الاثناء اختفى الموارنة من وادي العاصي أو كادوا، ولم يبقَ لهم موطن خارج جبل لبنان الا حلب التي لم يوفّق الروم في اخذها. ولعلّ موارنة الوادي هربوا من جور الروم، فلحق بعضهم بأبناء الطائفة المقيمين في جبل لبنان، ولجأ البعض الآخر إلى حلب محتمياً بأمرائها من بني حمدان وبني مرداس من بعدهم. ومهما كان الأمر، فمن الواضح أن الجزء الشمالي من جبل لبنان أصبح الموطن الأساسي للموارنة ومركز كنيستهم الدائم ابتداءً بالقرن العاشر. وقد أشار إلى ذلك الزجّال المؤرخ جبرائيل ابن القلاعي، الذي توفي مطراناً على قبرص عام ١٥١٦، حيث قال أن "عهد مارون في جبل لبنان في أيامه كان ستة قرون"[٩].

---

[٩] البيت الاخير من "مديحة على جبل لبنان" التي نشرها بولس قرالي تحت عنوان "حروب المقدّمين، ١٠٧٥-١٤٥٠"، بيت شباب، ١٩٣٧، ص ٧٢.

وانقطع الموارنة بعد لجوئهم إلى جبل لبنان عن العالم الخارجي، وتطبعوا بوعورة بيئتهم الجديدة، فأصبحوا شعباً صلباً، متراصّ الصفوف، شديد البأس، غيوراً على كيانه ودينه، ماهراً في القتال. واستمرت الكنيسة المارونية تقوم بمهمات القيادة، فبقيت قريبة من الشعب، ترشده في الامور الروحية والزمنية وتؤمّن له مستودعاً لخبرته. كان بطاركة الطائفة ومطارنتها يعيشون إلى جانب الشعب ببساطة ووداعة، يشاركونه افراحه وأحزانه دون ترفع أو تكبّر.

وحدث بعد نزوح الموارنة عن وادي العاصي ان الخلفاء الفاطميين في مصر تمكنوا من طرد الروم من سوريا، أو بلاد الشام كما دعاها العرب، فعادت هذه البلاد تحت سيطرة المسلمين. وفي عام ١٠٥٨ دخل آل سلجوق

الاتراك بلاد العراق بالاتفاق مع الخليفة العباسي، فتلقّبوا بالسلاطين واتخذوا بغداد مركزاً لدولتهم. ثم جردوا الحملات على بلاد الشام، فأخرجوا آخر الفاطميين منها عام ١٠٧٠. وعلى أثر طرد الروم من بلاد الشام في غضون القرن الحادي عشر، تعرّض المسيحيون هناك، على يد الفاطميين والسلاجقة، لموجة من الاضطهاد لعلها كانت الأولى من نوعها منذ الفتح الإسلامي.

وفي هذه الاثناء، كان الانشقاق تمّ بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة رومية. وكانت العلاقات بين الكنيستين توتّرت منذ القرن التاسع بسبب اصرار رومية على زعامتها للكنيسة المسكونية ورفض القسطنطينية الاعتراف بهذه الزعامة إلى الحد المطلوب. وجاءت حركة الأصلاح التي قام بها رهبان كلوني في القرن العاشر تقوّي مركز الباباوية في الغرب، فزادت رغبة في فرض زعامتها على القسطنطينية حتى اضطر بطاركة القسطنطينية، عام ١٠٥٤، أن يلجأوا إلى الانفصال. وكانت الكنيسة المارونية، ولا بد، على علم بالخلاف المتزايد بين القسطنطينية ورومية. ولما كانت قد عانت

اضطهاداً على يد كنيسة القسطنطينية لتمسكها بمذهب المشيئة الواحدة، كان من الطبيعي أن تميل في تأييدها إلى كنيسة رومية. وربما كان الموارنة يعتقدون أنهم بتمسكهم بمذهب المشيئة الواحدة انما يمثلون وجهة نظر رومية التي ترفضها القسطنطينية.

وظهر الضعف في دولة الروم في السنوات التي تلت الانفصال، فانهزمت جيوشها بقيادة الامبراطور رومانوس امام السلاجقة في معركة ملاذكرت، في بلاد أرمينيا، عام ١٠٧١. وسارع الاتراك على الاثر إلى اجتياح بلاد الاناضول. وما حلّ عام ١٠٨١ حتى كانت هذه البلاد قد ألحقت بدار الإسلام. واضطرّ أباطرة القسطنطينية إلى طلب النجدة من الغرب، فلبّت كنيسة رومية النداء ودعت الملوك وأمراء الفرنجة إلى تنظيم حملة عسكرية على نطاق واسع يكون هدفها نجدة ملوك الروم ضد السلاجقة واستعادة الاماكن المقدسة في بلاد الشام من ايدي المسلمين. وعام ١٠٩٦ بدأت جيوش الفرنجة تتحرك نحو القسطنطينية، فساعدت الروم على إسترجاع الجزء الغربي من بلاد الاناضول من السلاجقة.

ودخلت بعد ذلك بلاد الشام، فاحتلت انطاكية والرها، ثم توجهت جنوباً نحو القدس. وفي ربيع ١٠٩٩ وصل الفرنجة إلى عرقا، قرب طرابلس، فنزلت وفود الموارنة لاستقبالهم هناك يوم عيد الفصح، في ١٠ نيسان. وهكذا تمّ اللقاء الأول بين الموارنة والفرنجة، فتصادق الفريقان واستمرت علاقات الود بينهما طول مدة وجود الفرنجة في بلاد المشرق[١٠].

واحتل الفرنجة القدس في صيف ذلك العام. ثم تحول فريق منهم شمالاً، فأخذ جبيل عام ١١٠٢، وطرابلس عام ١١٠٩. وتأسست في طرابلس إمارة فرنجية امتدت تخومها من فتوح كسروان جنوباً إلى بلاد اللاذقية شمالاً، ومن مشارف وادي العاصي شرقاً إلى البحر غرباً، فشملت معظم المناطق المارونية من جبل لبنان. وعلى الاثر انتعشت الطائفة المارونية هناك، فأخذ الغيورون من ابنائها ينشئون الكنائس والأديرة في مختلف القرى. وكذلك اخذ الموارنة يدقون النواقيس "من نحاس

---

(١٠) انظر مقال المؤلف:
The Maronite of Lebanon under Frankish and Mamluk rule, ١٠٩٩-١٥١٦, Arabica, IV, ١٩٥٧, PP. ٢٩٠-٢٩٦.

بدل الشخب للصلاة والقداس"[11]. وكانت الدول الإسلامية تمنع رعاياها المسيحيين من استعمال الاجراس النحاسية وتجبرهم على الاستعاضة عنها بنواقيس خشبية.

وأثبت النجاح العسكري الذي أحرزه الفرنجة في بلاد الشرق بما لا يقبل الشك تفوق الغرب على بيزنطيا كقوة ضامنة للمسيحية، فاقتنع بطاركة الموارنة، على ما يبدو، بضرورة تقرب كنيستهم من رومية. ويقال أن أول من سعى إلى هذا التقرب البطريرك يوسف الجرجسي الذي كان مقيماً عام ١٠٩٩ في دير سيدة يانوح، في جبة المنيطرة، فأرسل من يمثله مع الوفد الفرنجي الذي ذهب إلى رومية ليزف إلى البابا بشرى احتلال القدس، وعاد هذا إلى البطريرك من رومية بتاج وعصا. وتقول المصادر المتأخرة ايضاً أن أساقفة الموارنة اقسموا الطاعة لرومية في لقاء تمّ بينهم وبين ممثل للبابا غريغوريوس الحالاتي (١١٣٠-١١٤١). وربما كان ذلك عام ١١٣٩، عندما أرسل البابا اينوشنتيوس الثاني قاصداً

---

[11] اسطفان الدويهي، "تاريخ الازمنة، ١٠٩٥-١٦٩٩"، بيروت، ١٩٥١، ص ٢٢.

إلى بلاد المشرق لينظر في بعض المشاكل الكنسية القائمة هناك. غير أن اللقاء بين الكنيسة المارونية وروميه لم يكمل قبل عام ١١٨٠. ففي ذلك العام، أو بعده بقليل، اجتمع رؤساء الموارنة بايمريكوس، بطريرك انطاكية اللاتيني، وأعلنوا أمامه قبولهم الكامل بإيمان الكنيسة الرومانية ودخولهم في طاعتها.

وجاء هذا الاتحاد بين الكنيسة المارونية ورومية يوطد العلاقات بين الموارنة والفرنجة. على أن الموارنة لم يكونوا جميعاً مصادقين للفرنجة. بل كان منهم، في بعض المناطق النائية من الجبل، من عصى الفرنجة، فاضطر هؤلاء إلى تأديبهم بأقسى الطرق[١٢]. وكان الفرنجة، على وجه العموم، ينظرون إلى المسيحيين من أبناء البلاد بشيء من الغطرسة ويعتبرونهم ادنى منهم مرتبة، ولعلّ في ذلك ما يفسر نقمة بعض الموارنة عليهم. وما ان تمّ الاتحاد بين الكنيسة المارونية ورومية عام ١١٨٠ حتى انقسم الموارنة بين مؤيد للاتحاد ومعارض له. وربما كان الموارنة الناقمون على الفرنجة على رأس

---

(١٢) راجع تاريخ غليوم الصوري تحت عام ١١٣٧.

المعارضين. وقام بين الفريقين، في السنوات التي تلت الاتحاد، خلاف شديد أدّى، في بعض الأحيان على الاقل، إلى اشتباكات دامية.

واهتمت رومية بالأمر، فأشار البابا اينوشنتيوس الثالث على القاصد الذي أرسله إلى الشرق عام ١٢٠٣ أن يجتمع برؤساء الموارنة من الطرفين ويوفق بينهم. وتم الاجتماع في طرابلس ذلك العام، وأقسم اساقفة الموارنة واعيانهم خضوعهم لرومية أمام القاصد وأعيان الفرنجة. وبعد عشر سنين من هذا الاجتماع، بعث البابا اينوشنتيوس بدعوة إلى البطريرك الماروني أرميا العمشيتي لحضور المجمع المسكوني الثاني عشر المنوي عقده في كنيسة اللاتران في رومية عام ١٢١٥. ولبّى البطريرك الدعوة، غير أن اقامته في رومية لم تدم طويلاً. ولعله لم يتمكن من متابعة ما كان يدور في المجمع من مناقشات، فاستأذن بعد حضور الجلسات الافتتاحية وعاد إلى بلاده في اوائل العام التالي، حاملاً إلى شعبه بركة خاصة من رومية ورسالة من الحبر الأعظم توضح بعض النقاط الأساسية في ايمان الكنيسة

الرومانية وتقاليدها. ولا تزال هذه الرسالة المؤرخة ٣ كانون الثاني ١٢١٥ (١٢١٦ حسب التقويم الحالي) في خزائن الفاتيكان، وهي أقدم وثيقة معروفة تتعلق بتاريخ الطائفة المارونية[١٣].

وتوفي البطريرك ارميا العمشيتي عام ١٢٣٠، فعاد الخلاف حول مبدأ الاتحاد من بعده يشق صفوف الموارنة[١٤]. وكان أهالي جبة المنيطرة أشدّ الموارنة معارضة للاتحاد، فاضطر البطاركة إلى ترك مركزهم القديم في المنطقة، في دير سيدة يانوح، والانتقال إلى اماكن اخرى. ولعلّ معارضة اهالي جبة المنيطرة للاتحاد تجددت قبل وفاة ارميا العمشيتي، والدليل على ذلك ان هذا البطريرك كان مقيماً في يانوح عام ١٢١٦، لكنه توفي في ميفوق، في بلاد البترون، ودفن هناك. وتنصّب

(١٣) يذكر المطران بولس ديب في تاريخه المذكور آنفاً، ص ٥-٧، وثائق قديمة تتعلق بتاريخ عبر مار مارون قبل القرن السابع، الا أن دير مار مارون لم يكن في ذلك الوقت كنيسة قائمة بذاتها.

(١٤) حول هذا الخلاف انظر مقال المؤلف:
The maronite church in the Middle Ages and its union with Rome, Oriens Christianus, XLII, ١٩٥٨, PP. ٩٢-١٠٤.

خلفه البطريرك دانيال الشاماتي في دير سيدة ميفوق، لكنه اضطر بسبب الفتن ان ينتقل اولاً إلى دير مار قبريانوس كفيفان، ثم إلى دير مار يوحنا مارون كفرحي، وكلاهما في بلاد البترون، واخيراً إلى دير مار جرجس الكفر، في بلاد جبيل. واستمر البطاركة، على ما يبدو، ينتقلون من مقر إلى مقر حتى عادوا إلى دير سيدة ميفوق عام ١٢٧٨، فجددوا بناءه ليكون مركزاً للبطريركية. وكانت المعارضة للاتحاد مع رومية، في تلك الاثناء، تزداد قوة وانتشاراً بين الموارنة حتى قلق الفرنجة من امرها.

وكانت إمارة طرابلس آخر ما تبقى للفرنجة في بلاد الشام عدا بعض المدن الساحلية من مملكة القدس. وكان المماليك، أصحاب مصر والمناطق الداخلية من بلاد الشام، قد أغاروا على بلاد طرابلس مرتين في عهد السلطان بيبرس، فأخذوا القليعات، في سهل عكار، وهدّوا قلعتها عام ١٢٦٤، ثم خربوا الحدث وجوارها في جبة بشري وفتكوا بأهلها عام ١٢٦٨. وما أن ولي المنصور قلاوون السلطنة عام ١٢٧٩ حتى ركز اهتمامه على أخذ طرابلس، فأصبح وضع الفرنجة هناك في غاية الحرج.

كان الانشقاق في الكنيسة المارونية، في حينه، يزيد الوضع حرجاً، خصوصاً أن الفئة المعارضة للاتحاد لم تكن على علاقة حسنة بالفرنجة.

وبلغ الانشقاق ذروته عام ١٢٨٢، عندما شغر الكرسي البطريركي بوفاة البطريرك دانيال الحدشيتي. فسعى الفرنجة إلى انتخاب ارميا الدملصاوي خلفاً له، وأرسلوه فور انتخابه إلى رومية ليأتي بالتثبيت. واستقر ارميا الدملصاوي في حالات، في حمى أمراء جبيل الجَنَويّة الذين سعوا في تنصيبه. اما الموارنة المعارضون للاتحاد فرفضوا الاعتراف به كرئيس للطائفة، وقاموا بانتخاب منافس له هو لوقا البنهراني. واتخذ البطريرك لوقا مركزاً حصيناً له في الحدث واخذ يناوئ الفرنجة الذين دعموا منافسه.

وحدث في العام التالي (١٢٨٣)، في أيار، أن فرقاً من التركمان اغارت على جبة بشري بأمر من دولة المماليك، فأخذت اهدن وهدمت قلعتها في حزيران، ثم سارت في القتل والنهب من قرية إلى قرية حتى وصلت إلى الحدث في ٢٢ آب، فحاصرت القرية وملكت قلعتها

واخذت البطريرك لوقا البنهراني أسيراً. وقد وصف ابن عبد الظاهر، الذي كتب سيرة السلطان قلاوون، هذه الحادثة فقال:

"اتفق ان في بلاد طرابلس بطركاً عتا وتجبر واستطال وتكبر واخاف صاحب طرابلس وجميع الفرنجية، واستغوى أهل تلك الجبال واهل تلك الاهوية من ذوي الضلال. واستمر امره حتى خافه كل مجاور. وتحصن في الحدث وشمخ بأنفه، وما قدر أحد على التحيل عليه من بين يديه ولا من خلفه. ولولا خوفه من سطوة مولانا السلطان لخرب تلك البلاد، وفعل ذلك أو كاد. فاتفق ان النواب ترصدوه مراراً فما وجدوه. فقصده التركمان في مكانه وتحيلوا عليه حتى امسكوه واحضروه اسيراً حسيراً. وكان من دعاة الكفر وطواغيهم واستراح المسلمون منه وآمنوا شره. وكان امساكه فتوحاً عظيماً اعظم من افتتاح حصن أو قلعة وكفى الله مكره"[١٥].

---

[١٥] ابن عبد الظاهر، "تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المقصور"، القاهرة، ١٩٦١، ص ٤٧.

وانتهى أمر البطريرك لوقا البنهراني بأخذ المماليك للحدث، فاستمر ارميا الدملصاوي بطريركاً على الكنيسة المارونية دون منازع حتى وفاته عام ١٢٩٧. ولعل الموارنة المنشقين عادوا إلى طاعة البطريرك بعد الكارثة التي حلّت بجبة بشري عام ١٢٨٣، فوقفوا صفاً واحداً مع الفرنجة في وجه الخطر الداهم. غير أن امر الفرنجة في بلاد الشام لم يعش طويلاً بعد ذلك. فلم تمضِ ست سنوات على سقوط الحدث حتى انقض المماليك على طرابلس، فأخذوها في ٢٧ نيسان ١٢٨٩. وفي العام التالي أخذ المماليك جبيل وبيروت وصيدا وصور وعثليت، ثم ساروا إلى حصار عكا فأخذوها عام ١٢٩١. وبسقوط عكا انتهى حكم الفرنجة في بلاد الشام، فلم يبقَ لهم في بلاد المشرق إلا جزيرة قبرص. وأعاد المماليك

تنظيم المناطق الشامية بعد اخراج آخر الفرنجة منها، فقسموها ست مقاطعات أو ممالك هي دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد والكرك، وجعلوا على رأس كل منها نائباً للسلطنة. وهكذا أصبحت المناطق المارونية من جبل لبنان تابعة لمملكة طرابلس.

وعاد الموارنة، بعد خروج الفرنجة من بلاد الشام، إلى الانقطاع عن العالم المسيحي في الخارج. غير أن كنيستهم استمرت متمسكة بإيمانها الكاثوليكي وباتحادها مبدئياً مع رومية. وكان البطاركة الموارنة، فور انتخابهم، يسعون إلى التثبيت البابوي عن طريق المرسلين الفرنسيسكان وغيرهم، فيتأخر وصول التثبيت، بسبب صعوبة المواصلات، سنين طويلة. ويبدو أن الموارنة لم يتعرضوا أول الأمر إلى اي اضطهاد من المماليك. ذلك أن هؤلاء ركّزوا اهتماهم في البدء على اضطهاد النصيرية والشيعة الاسماعيلية والاثني عشرية في منطقتي الضنية وكسروان، فلم يلتفتوا إلى الموارنة. وحدث، عندما أغار المماليك على كسروان وخرّبوها عام ١٣٠٥، ان الموارنة القاطنين مع الشيعة هناك تشتّتوا مع

من تشتت، إلاّ ان الغارة هذه لم تستهدف الموارنة[١٦]. وفي المناطق الشمالية ترك المماليك الموارنة وشأنهم، يتدبّرون أمورهم بقيادة بطاركتهم وأساقفتهم، ويدفعون الجزية لنواب طرابلس عن طريق مقدمي القرى.

وحدث عام ١٣٦٥ ان فرنجة قبرص اغاروا على الاسكندرية فنهبوها واعملوا في أهلها السيف. واحدثت هذه الغارة ردة فعل ضد الطوائف المسيحية في مختلف الانحاء المصرية والشامية، فتعرضت هذه الطوائف على الاثر إلى اضطهادات عنيفة. وكان الموارنة في جملة من اضطهد، فقبض المماليك على عدد من أساقفتهم واقتادوهم إلى السجن في دمشق. وهرب البطريرك جبرائيل الحجولاوي من أمام الاضطهاد واستتر في قريته حجولا. إلا أن المماليك تمكنوا آخر الامر من القبض عليه، فأحضروه إلى طرابلس وأحرقوه عند جامع طيلان،

---

(١٦) أنظر:
Henry Laoust, Remarques sur les expéditions de Kasarwan sous les premiers Mamluks, Bulletin du Musée de Beyrouth, IV, ١٩٤٠, PP. ٩٣-١١٥; Henry Lammens, La Syrie, précis historiques, Beyrouth, ١٩٢١, II, PP. ١٥-١٦.

خارج المدينة، في أول نيسان ١٣٦٧.

وانكسرت شوكة البطريركية المارونية بمقتل جبرائيل الحجولاوي، وأصبح خلفاؤه في دير سيدة ميفوق تحت رحمة دولة المماليك في طرابلس. وضعفت سطوة الأساقفة على الطائفة، فحلّ مكانهم في الزعامة مقدمو القرى وأصبحت لهم الكلمة النافذة. وكان المقدمون على علاقة حسنة بحكام طرابلس، فدعم هؤلاء سلطتهم واعترفوا لهم بالزعامة في مختلف مناطق الجبل. وكان بين هؤلاء المقدمين الموارنة يعقوب بن ايوب الذي نصب مقدماً على بشري زهاء عام ١٣٨٢، فعظم شأنه وقوي نفوذه، حتى شملت مقدميته الجبة بأسرها. واعترف المماليك بزعامته فعيّنوه كاشفاً على المنطقة. وكان الكاشف، في نظام دولة المماليك، مسؤولاً عن جباية الضرائب والمحافظة على الأمن في منطقته. وكان يعقوب بن أيوب غيوراً على دينه، فاعترفت البطريركية المارونية ايضاً بزعامته وعينته شدياقاً للكنيسة، موكلةً اليه بتدبير الشؤون الزمنية للطائفة. واستمر الشدياق – الكاشف يعقوب بن أيوب مقدماً على حبة بشري حتى

وفاته عام ١٤٤٤، وخلفه في المقدمية اولاده وأحفاده[١٧].

وفي تلك الأثناء، دعا البابا أوجانيوس الرابع إلى مجمع مسكوني للنظر في امكان انهاء الانشقاق بين الكنيسة الشرقية وورومية. وانعقد المجمع عام ١٤٣٩ في مدينة فلورنسا، في ايطاليا. وكان بطريرك الموارنة ذلك الوقت يوحنا الجاجي، فاستدعى الاخ جوان، رئيس الرهبان الفرنسيسكان في بيروت، وطلب منه أن يذهب مندوباً عنه إلى المجمع وأن يعود اليه بالتثبيت. وفشل مجمع فلورنسا في انهاء الانشقاق. واتضح للبابا اوجانيوس ثبوت الكنيسة المارونية وحدها، من بين البيع الشرقية، في طاعة رومية، فسرّ لذلك واعترف بالبطريرك الماروني، للمرة الأولى، بطريركاً على الكرسي الانطاكي. وكان أسلافه يثبتون البطاركة الموارنة في رئاسة طائفتهم ولا يذكرون اسماً لكرسيهم[١٨]. وعاد

---

(١٧) انظر مقال المؤلف
The Muquadams of Bsharri..., ١٣٨٢-١٦٢١, Arabica, XV, ١٩٦٨, PP. ٦٣-٨٦.

(١٨) انظر اسطفان الدويهي، "تاريخ الازمنة..."، ص ٢٠٥-٢٠٦، ولم يورد العنيسي نص هذا التثبيت في Toblae Anaissi, Bullarium Maronitarium, Rome ١٩١١.

الاخ جوان من رومية بالتثبيت، وهرعت وفود الموارنة إلى طرابلس لاستقباله، فأقلق ذلك نائب طرابلس. وكانت الاشاعة قد سرت بين المسلمين بأن الروم والفرنجة انما اجتمعوا في فلورنسا للاتفاق على خطة جديدة لإسترجاع الاماكن المقدسة من يد سلطان مصر. فأمر النائب بالقبض على الاخ جوان ورفاقه وأرسل عسكراً لنكبة مركز البطريركية المارونية في ميفوق. وكان من جراء ذلك أن نقل يوحنا الجاجي مركز البطريركية في العام التالي من ميفوق إلى دير سيدة قنوبين، في جبة بشري، حيث استقر في حمى المقدم يعقوب.

أما الرسالة الاولى في هذه المجموعة التي تخاطب البطريرك الماروني باللقب الانطاكي فهي الرسالة التي وجهها عام ١٤٦٩ البابا بولس الثاني الى البطريرك بطرس بن حسان الحدثي.

"كالوردة بين الأشواك"

جدّت رومية في اهتمامها بالموارنة بعد مجمع فلورنسا، فأوكلت رعاية شؤونهم إلى المرسلين الفرنسيسكان في بيروت والقدس. وعيّن أحد هؤلاء، المدعو الأخ غيرفون، مرسلاً خاصاً في جبل لبنان حيث استمر مقيماً ربع قرن، من عام ١٤٥٠ إلى ١٤٧٥، يرشد الطائفة في ايمان الكنيسة الرومانية وطقوسها. وكان، بسعي من الاخ غريفون، ان قُبل ثلاثة من الشبان الموارنة في الرهبنة الفرنسيسكانية وأرسلوا إلى ايطاليا عام ١٤٧٠ للتدرّب. وبعد ثلاثة وعشرين سنة عاد احدهم، جبرائيل ابن القلاعي، مرسلاً فرنسيسكانياً إلى شعبه.

وتقوّت الكنيسة المارونية من جديد بعناية الفرنسيسكان، واخذ البطاركة في قنوبين يستعيدون،

تدريجاً، السطوة التي كانت قديماً لأسلافهم. ويبدو ان مقدمي بشري لم يأنسوا لذلك، فساءت العلاقات بينهم وبين البطاركة. وبلغت المنافسة بين الفريقين أشدها بعد مغادرة الأخ غريفون جبل لبنان. وكان مقدم بشري في ذلك الوقت، وهو عبد المنعم ايوب (١٤٧٢-١٤٩٥)، شاباً عنيداً طموحاً، فأخذ يخاصم البطريرك في قنوبين ويحاول قهره. وكانت جالية من اليعاقبة قد استقرت في جبة بشري منذ أوائل القرن لتنعم بحماية المقدمين الموارنة، فأظهر عبد المنعم أيوب الميل إليها وأخذ يقوى شأنها بشتى الوسائل، نكاية بالبطريرك. واستاء أبناء الجبة الموارنة من تدليل المقدم لليعاقبة الغرباء وموقفه العدائي من الكنيسة، والتفوا حول البطريرك لمقاومته. وتفاقم الشر بين الطرفين. وعام ١٤٨٨ استدعى المقدم عبد المنعم فريقاً من مسلمي الضنية لمساعدته في تأديب اهالي اهدن لاستهتارهم بسلطته. وما إن وصل الضنيون خارج اهدن حتى انقضّ عليهم كمين من اهالي البلدة وأهلكهم. وضعف شأن المقدم بعد هذه الهزيمة، ولم يعد بإمكانه حماية أصدقائه اليعاقبة، فخاف هؤلاء وتشتتوا من الجبة.

وكان عقب هذه الحادثة، عام ١٤٩٣، ان عاد جبرائيل ابن القلاعي إلى جبل لبنان مرسلاً فرنسيسكانياً من رومية، فاستقر مدة من الزمن في قنوبين وأخذ يدعم البطريركية بكل قواه. وكانت له موهبة في نظم الزجل، فجدّ في تأليف القصائد في مدح الكنيسة المارونية وثباتها في الايمان الروماني، وتأنيب المقدم عبد المنعم وغيره ممن كانوا يقاومون البطاركة ويظهرون الميل إلى اليعقوبية. ونظم كذلك تاريخاً زجلياً للطائفة المارونية منذ قدومها إلى جبل لبنان أظهر فيه الموارنة كشعب مختار اصطفاه الله والجأه إلى مناعة جبل لبنان حيث أوكل اليه المحافظة على الايمان الصحيح وكرامة المسيحية في الشرق. ودعا ابن القلاعي الموارنة إلى نبذ الخلافات والوقوف صفاً واحداً، مقدمين وشعباً، مع الكنيسة. وأوضح لهم أنهم لن يخلصوا من الذلّ الذي لحق لهم في القرنين السابقين إلاّ عن طريق ثبوت جميع فئات الشعب، بقيادة البطريرك، في طاعة رومية[١٩].

---

(١٩) راجع كتاب المؤلف:

Maronite Historians, of Mediaeval Lebanon, Beirut, ١٩٥٩, PP. ٢٣-٨٧.

وأيضاً:

Iliya Harik, Politics and change in a traditional society; Lebanon, ١٧١١-١٨٤٥, Princeton, N.J., ١٩٦٨, PP. ١٢٨-١٣١.

ونجح ابن القلاعي في مهمته، فعاد مقدمو بشري بعد وفاة عبد المنعم ايوب عام ١٤٩٥ يعترفون بزعامة البطاركة ويظهرون لهم الولاء، ولم يعد هناك اي خلاف بين الشعب الماروني حول مبدأ الاتحاد مع رومية والتمسك بإيمانها. وفي ١٥١٥، السنة الاخيرة من حكم المماليك في بلاد الشام، كتب البابا لاوون العاشر إلى البطريرك الماروني شمعون الحدثي يمتدح ولاء شعبه لرومية ويقول: "نشكر القدر الإلهي إذا شاء، بحلمه العظيم، أن يبقي عبيده المؤمنين، من بين الكنائس الشرقية، مصابين في وسط الكفر والبدع كالوردة بين الاشواك..." أما جبرائيل ابن القلاعي، فانتقل بعد وفاة المقدم عبد المنعم من قنوبين إلى قبرص لترؤس الرهبنة الفرنسيسكانية هناك. وكانت جالية من الموارنة قد استقرت منذ زمن في الجزيرة هرباً من جور المماليك، فعين ابن القلاعي مطراناً عليها عام ١٥٠٧ واستمر في هذا المنصب حتى وفاته عام ١٥١٦.

وفي السنة ذاتها التي توفي فيها ابن القلاعي، أوقع السلطان العثماني سليم الأول الهزيمة بالمماليك في معركة مرج دابق، قرب حلب، وسار إلى احتلال بلاد الشام ومصر. ولما أصبح هذان القطران في ايدي العثمانيين، في اوائل العام التالي، أعيد تنظيمهما وفقاً للنظم العثمانية، فاستعيض عن الممالك بالولايات، أو الايالات، وجعلت مصر ولاية واحدة وبلاد الشام ثلاثاً: دمشق وحلب وطرابلس. وهكذا أصبح الموارنة في جبة بشري وبلاد البترون وجبيل وجبة المنيطرة تابعين لولاة طرابلس العثمانيين كما كانوا تابعين لنوابها المماليك من قبل.

وكانت ولاية طرابلس، من بين الولايات الشامية الثلاث، أقلها تنظيماً وأسوأها تدبيراً. وسرعان ما أوكلت

الدولة العثمانية تدبير أمورها إلى ولاة دمشق، فأخذ هؤلاء يلزمونها كسنجقية لزعيم محلي يضمن جباية الضرائب. واخذ هذا بدوره يلزم الجباية في المناطق تارة لزعمائها المحليين، وطوراً لأتباعه وأعوانه، فلحق بالشعب من ذلك جور عظيم. ولم يطل الزمن حتى بدأ الموارنة ينزحون من بلاد طرابلس إلى المناطق الجنوبية من جبل لبنان طلباً للامن.

وكانت هذه المناطق الجنوبية، وهي كسروان والمتن والجرد والغرب والشوف، تابعة لولاية دمشق. إلا أن العثمانيين اعترفوا بالزعامات المحلية فيها منذ البدء، فلزموا كل منطقة لزعمائها، يجبون الضرائب ويحافظون على الامن دون أن تتدخل الدولة مباشرة في شؤونهم. وهكذا أصبح الأمراء المعنيون الدروز ملتزمي الشوف، وأمراء الشويفات والدروز، الذين عرفوا في ما بعد بالارسلانيين، ملتزمي الغرب والجرد والمتن، والأمراء العسافيون التركمان السنيون ملتزمي كسروان. وكان المماليك قد أتوا بأجداد الأمراء العسافيين إلى كسروان عام ١٣٠٦ للمحافظة على المنطقة بعد فتحها، فأصبحت لهم فيها، مع الزمن، زعامة تقليدية.

وعندما افتتح السلطان سليم الأول بلاد الشام خصّ الأمير عساف التركماني بالعناية وخفض المال المترتب عليه، فانتعشت كسروان على الاثر وأصبحت اكثر المناطق اللبنانية ازدهاراً، واخذ الموارنة النازخون من الشمال يستقرون فيها. وارتاح الأمراء العسافيون إلى نزوح الموارنة إلى منطقتهم، اذ كان الموارنة النازحون فلاحين ودعاء يعمرون البلاد بنشاطهم ولا يعرقلون مساعي الحكام. وكان الشيعة، سكان كسروان الأصليون، يقاومون آل عساف ويعصونهم، فمال هؤلاء عنهم وأخذوا يحيطون انفسهم بمدبرين وأعوان من الموارنة.

وكان الشيخ حبيش، من موارنة يانوح، في جبة المنيطرة، قد انتقل من اوائل العهد العثماني إلى كسروان واستقر في غزير، قاعدة آل عساف، ودخل ابناؤه واحفاده في خدمة الأمراء فاستعان بهم الأمير منصور، الذي ولي الإمارة عام ١٥٢٣، في القضاء على مناوئيه وأخصامه من الشيعة وغيرهم. وهكذا عظم شأن آل حبيش حتى أصبحوا الاسرة الأولى، بعد الأمراء، في المنطقة. وأصبحت لآل عساف، عن طريق آل حبيش، صلة

بالموارنة في بلاد طرابلس، فأخذ ملتزمو الحكم في طرابلس يلزمون المناطق المارونية للامير منصور، موكلين إليها تدبيرها وجباية اموالها. ونجح منصور، بمساعدة آل حبيش، في ضبط المناطق الموكولة اليه. وامتد حكمه مع الزمن حتى شمل جميع بلاد طرابلس عدا المدينة، كما شمل مدينة بيروت. وكان الموارنة في جميع هذه الانحاء يرون العسافي صديقاً وحامياً لهم. وصارت لآل حبيش زعامة يعترف بها جميع أبناء الطائفة[٢٠].

وكانت زعامة آل حبيش من نوع جديد لم يألفه الموارنة من قبل. إذ لم تكن دينية كهنوتية كزعامة البطاركة، كما أنها لم تكن محلية ضيقة كزعامة المقدمين. ولم يكن هناك اي تنافس بين البطاركة وآل حبيش كما كان بين البطاركة والمقدمين، بل بالعكس، إذ كان آل حبيش شديدي الغيرة على مصلحة الكنيسة المارونية، يحمونها من جور حكام طرابلس ويدعمون بطاركتها ضد مقدمي بشري الذين استمروا يناوئونهم من وقت إلى آخر.

---

[٢٠] أنظر مقال المؤلف:

Northern Lebanon under the dominance of Ghazir, ١٥١٧-١٥٩١, Arabica, XIV, ١٩٦٧, PP. ١٤٤-١٦٦.

وكان المقدمون منذ عهد المماليك، في بشري وغيرها من القرى والمناطق، أشبه ما يكونون برؤساء عصابات، يفرضون هيبتهم على الشعب بالقوة ويكرّسون معظم جهدهم للمحافظة على مصالحهم الخاصة ولاسترضاء ممثلي الدولة في طرابلس، حتى لو كان ذلك على حساب كنيستهم وطائفتهم. أما آل حبيش، فارتكزت مكانتهم بين الموارنة على قربهم من آل عساف وقدرتهم على خدمة مصالح الكنيسة والطائفة عن طريق الأمراء. وتمكن آل حبيش، كوكلاء للإمارة العسافية، من الاطلاع على شؤون البلاد الداخلية والخارجية إلى حدّ لم يتمكن منه غيرهم، فأصبحوا ذوي خبرة واسعة، وأصبحت لهم علاقات قوية مع النافذين في مختلف المناطق التابعة لآل عساف، وكذلك مع زعماء المناطق المجاورة. ولربما اتسعت اتصالاتهم إلى أبعد من ذلك. ووضع آل حبيش خبرتهم وامكاناتهم في خدمة كنيستهم وأبناء طائفتهم دون حساب اذ كانوا، بسبب قربهم من الأمراء، في غنى عن ذلك.

وعطف الأمراء العسافيون على الموارنة واعتنوا بهم كما لم يفعل حاكم من قبل. ولم يكن حكم آل عساف

من النوع ذاته الذي عهده الموارنة عند حكام طرابلس. ذلك أن نواب طرابلس المماليك، ومن بعدهم الولاة وملتزمو السنجقية في العهد العثماني، كانوا يمثلون حكماً إسلامياً قائماً على الشرع يضع مصلحة الإسلام والمسلمين، مبدئياً، فوق كل مصلحة. أما آل عساف، فكانوا مسلمين سنيين من ناحية الدين، الا أن حكمهم كان قائماً على عرف اقطاعي وتقاليد محلية بعيدة كل البعد عن الشرع. وكانت مصالحهم كأمراء مصالح اقليمية لا تمتّ إلى العصبية الدينية بصلة. وهذا ما فسح في المجال لدخول الموارنة كعنصر فعال في الإمارة العسافية. والتقت مصالح الطائفة المارونية ومصالح آل عساف مادياً ومعنوياً، فنشأت بين الفريقين وحدة حال لم يأنس لها المسلمون وممثلو الدولة العثمانية في طرابلس ودمشق[٢١].

وتخوّف العثمانيون من تعاظم شأن آل عساف، وجدوا في البحث عن منافسين لهم في بلاد طرابلس للحدّ من سطوتهم. ووقع اختيارهم على يوسف سيفا التركماني،

---

[٢١] قال موسى بن يوسف بن ايوب الانصاري الدمشقي في ذكره لمقتل الامير محمد سيفا عام ١٥٩١م. (٩٩٩ هـ): "وفرحت... بموته أهل طرابلس... وأراح الله المسلمين منه." كتاب نزهة الخاطر وبهجة الناظر (مخطوط مصوّر فوتوغرافياً في مكتبة الجامعة الأميركية)، ص ١٠٣.

كبير زعماء عكار، فأخذوا يقوونه ويرفعون من شأنه. وما حلّ عام ١٥٧٩ حتى أعيد تنظيم بلاد طرابلس كولاية منفصلة عن دمشق، فأطلق على يوسف سيفا لقب الباشوية وعيّن بكلربكياً(*)، أي والياً، عليها. وانكسرت على الاثر شوكة آل عساف في المناطق الشمالية من جبل لبنان، الا انهم بقوا أسياد الموقف في كسروان حيث خلف الأمير محمد والده منصور عام ١٥٨٠. وفي ربيع ١٥٩١ خرج الأمير محمد من غزير لمحاربة يوسف سيفا في طرابلس، فقتل في الطريق قرب البترون وانقرضت به سلالة آل عساف، إذ لم يكن له ولد يخلفه. وبعد مقتله بعامين تزوج يوسف سيفا امرأته ودخل على جميع أملاكه وامواله، فقبض على ثلاثة من آل حبيش وقتلهم، وفرّ الباقون إلى المناطق الدرزية.

(*) الكلمة تركية مركبة من كلمة بكلر (امراء)- وبك (مير)، بمعنى "أمير الامراء". وكان البكلربكي يدعى احياناً "مير ميران"، حسب التعبير الفارسي المأخوذ عن العربية.

وساء حال الموارنة بزوال الإمارة العسافية، إذ أبغضهم يوسف سيفا، على ما يبدو، وأخذ يسلّط الشيعة عليهم. وكانت عشيرة آل حمادة الشيعية قد نزحت من بلاد اذربيجان إلى قمهز، في جبة المنيطرة، قبيل الفتح العثماني، على اثر افتتاح العثمانيين لتبريز عام ١٥١٤، فأوكل ابن سيفا تدبير كسروان وغيرها من المناطق المارونية إلى رؤساء هذه العشيرة. ونفر الموارنة من حكم ابن سيفا وآل حمادة، فحولوا أنظارهم جنوباً إلى بلاد الشوف، متأملين العطف والعناية من امرائها المعنيين.

وكان الأمير فخر الدين المعني قد خلف والده قرقماز في زعامة دروز الشوف عام ١٥٨٤ وهو بعد حدث. فأتته الظروف وامتدت سيطرته عام ١٥٩١ حتى

شملت الغرب والجرد والمتن ومدينة صيدا بالإضافة إلى الشوف. وكان الشوف يعتبر قديماً جبل صيدا، والغرب والجرد والمتن وكسروان جبل بيروت، فبقي لفخر الدين أن يستولي على مدينة بيروت ومنطقة كسروان حتى تصبح جميع بلاد صيدا وبيروت في حوزته. وحذا فخر الدين في سياسته حذو الأمراء العسافيين واحاط نفسه بمستشارين ومدبرين من الموارنة، وعلى رأسهم آل الخازن، من أعيان كسروان(٢٢). فأمن الموارنة، كنيسةً وشعباً، للأمير الدرزي، وأصبحوا انصاراً له حيثما كانوا. ولم يطل الوقت حتى تمكن فخر الدين من طرد يوسف سيفا من بيروت عام ١٥٩٨، والاستيلاء على كسروان نهائياً عام ١٦٠٥، فصار له قاعدة حكم في بلاد الموارنة.

وكان الأمير فخر الدين بحاجة إلى الدعامة القوية التي أمنها له الموارنة. ذلك أن الدروز لم يقفوا صفاً

---

(٢٢) يبدو أن قصة لجوء فخر الدين الى كسروان واقامته في بلونة في حمى آل الخازن بين ١٥٨٤ و١٥٩١ اسطورة متأخرة وضعت لتفسر عطف الامير على هذه الاسرة المارونية. أنظر:
Adel Ismail, Histoire du Liban du XVIIème siècle à nos jours, I, Paris, ١٩٥٥, P. ٦.

واحداً إلى جانبه، بل كان منهم من ناوأه أشد المناوأة. ففي الشوف، قاعدة آل معن، كان الدروز منقسمين فريقين: فريقاً مؤيداً للأمير يتزعّمه الشيخ يزبك بن عبد العفيف، وفريقاً مناوئاً له يتزعّمه الشيخ جنبلاط(٢٣). أما في الغرب والجرد والمتن، فكان الدروز القيسيون، وعلى رأسهم آل بحتر التنوخيون، انصاراً للامير، بينما كان الدروز اليمنيون، وعلى رأسهم أمراء الشويفات، اخصامه. وكان الفريق اليمني ينصاع لأوامر فخر الدين كملتزم يمثل السلطة العثمانية في المناطق الدرزية، الا أنه لم يعترف للأمير بزعامة وراثية على جميع هذه المناطق. اذ كانت زعامة آل معن وراثية فقط في الشوف. أما في الغرب والجرد والمتن، فكانت الزعامة وراثية متنازعة بين الأمراء البحتريين القيسيين، اخوال فخر الدين، وأمراء الشويفات اليمنيين. وكان التطاحن بين القيسية واليمنية في هذه المناطق الثلاث منذ الفتح العثماني قد أضعف الفريقين، فتمكن فخر الدين، بمساعدة الفريق القيسي، من

(٢٣) أنظر أحمد بن محمد الخالدي، "لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، وهو كتاب تاريخ الامير فخر الدين المعني"، بيروت، ١٩٣٦، ص ٣٢، ٣٦.

ضمها إلى إمارته[٢٤].

ويبدو أن فخر الدين جدّ منذ وقت مبكر في تقوية مركزه في المناطق الدرزية، فأخذ يشجع انصاره الموارنة على النزوح إلى هذه المناطق. وكان الأمير شديد الاهتمام بانتاج الحرير، فساعد نزوح الموارنة إلى المناطق الدرزية على تقوية هذا الانتاج، اذ استقر الفلاحون منهم في المزارع حيث اشتغلوا في تربية دود القز، وغيرهم في القرى الكبرى وبيروت وصيدا حيث اشتغلوا في تجارة الحرير. وكانت الحركة التجارية قد نشطت بين البلاد العثمانية وبلاد الغرب في النصف الثاني من القرن السادس عشر، فازداد الطلب على نتاج المناطق الدرزية وكسروان من الحرير. وقامت عن طريق الحرير مصلحة اقتصادية مشتركة تجمع بين الموارنة والإمارة المعنية وتوطد وحدة الحال بين الطرفين، إذ أصبح نشاط الفلاحين

---

[٢٤] يتضح من تاريخ ابن سباط (لا يزال مخطوطاً) وتاريخ طولون الصالحي الدمشقي "مفاكهة الخلان في حوادث الزمان"، القاهرة، ١٩٦٢-١٩٦٤، أن الحروب قامت في الغرب والجرد والمتن بين القيسية واليمنية على إثر محاولة العثمانيين احلال امراء الشويفات اليمنيين مكان آل بحتر في زعامة هذه المناطق بعد عام ١٥١٧. ويبدو أن العثمانيين قبلوا أخيراً بتلزيم هذه المناطق الثلاث لفخر الدين، أمير الشوف، بعدما اتّضح فشل امراء الشويفات في حكمها بسبب مناوأة البحتريين لهم.

والتجار الموارنة قواماً لاقتصاد الإمارة. كما كان تأييدهم السياسي دعامة لسطوة الأمير. ووجد الأمير في الموارنة من الوفاء ما جعله يخصهم بعناية مفضلة. فأصبحت لهم في عهده مكانة ممتازة وصفها البطريرك اسطفان الدويهي (١٦٢٩-١٧٠٤) بقوله:

"وفي دولة فخر الدين ارتفع رأس النصارى، عمروا الكنائس وركبوا الخيل بسروج ولفوا شاشات وكرور، لبسوا طوامين وزنانير مسقطة وحملوا القاص والبندق المجوهرة. وقدموا المرسلين من بلاد الفرنج واخذوا السكنة في جبل لبنان. لكون غالب عسكره كانوا نصارى، وكواخيه وخدامه موارنة"[٢٥].

وكان اهتمام رومية بالموارنة، في هذه الاثناء، قد ازداد على أثر الأصلاح الذي أدخل على الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في اواسط القرن السادس عشر، فأخذ أحبار رومية يعينون كاردينالاً خاصاً من كرادلة الكنيسة لرعاية شؤون الطائفة المارونية. وعام ١٥٨٥ انشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر في رومية مدرسة خاصة لتدريب الكهنة الموارنة. وفي الوقت ذاته قوى

---

[٢٥] اسطفان الدويهي، "تاريخ الازمنة..." بيروت، ١٩٥١، ص ٣٢٩.

نشاط المرسلين الكاثوليكيين، من الفرنسيسكان واليسوعيين وغيرهم، في بلاد المشرق، فتوطدت العلاقات بين الكنيسة المارونية والكنيسة الكاثوليكية في الغرب عن طريق هؤلاء المرسلين. وعام ١٥٩٦ عقد مجمع للكنيسة المارونية في قنوبين حضره قاصد من البابا اقليموس الثامن هو الاب دنديني اليسوعي، وثبت هذا المجمع من جديد تمسك الموارنة بالايمان الكاثوليكي وخضوعهم لرومية.

وارتاح أحبار رومية لسياسة فخر الدين تجاه الموارنة، كما ارتاحوا لحسن المعاملة التي لقيها المرسلون الكاثوليكيون في بلاده، فأخذوا يشجعون الموارنة على اعتباره حامياً ونصيراً لهم. وزاد في ثقة الفاتيكان بالأمير ذلك التحالف الذي تم عام ١٦٠٨ بينه وبين آل مديتشي، أمراء توسقانية. وعام ١٦١٠ بعث البابا بولس الخامس برسالة إلى البطريرك الماروني يوحنا مخلوف يحثه فيها على طلب الحماية، عند الحاجة، من فخر الدين. وكان يوحنا مخلوف قد سبق أن طلب الحماية من الأمير الدرزي في العام السابق فور انتخابه بطريركاً. وقد ذكر الدويهي ذلك في تاريخه فقال:

"في سنة الف وستماية وتسع مسيحية... اجتمع الرؤساء وأكابر الشعب وجلسوا على الكرسي الانطاكي الاسقف يوحنا ابن مخلوف الهدناني باختيار كل الرعية... ومن كثرة المظالم التي كانت صايرة على الكرسي من القشلق(*) ومن الشدياق خاطر (الوكيل على مقدمية بشري) اضطر أن يتوجه إلى ناحية الشوف ليكون تحت حماية الأمير فخر الدين... وعندما حضر على الأمير فخر الدين قبله بكل كرامة. وصدف ان قبل ذلك الزمان وقعت الفتنة بين المسلمين سكان قرية مجدل معوش وكثرت القتلى بين الجانبين حتى انهم اتفقوا على بيع القرية والخروج منها. فاشتراها منهم الأمير علي ابن الأمير فخر الدين باثني عشر الف ودفعها للنصارى. فنزل البطرك في مجدل معوش وعمر له فيها كنيسة ودار واستمر فيها حتى قصد زيارة القدس الشريف"(٢٦).

وتقلّبت الأحوال على الأمير فخر الدين، فاضطر إلى التخلي عن الإمارة والهرب إلى ايطاليا عام ١٦١٣. ثم عاد إلى بلاده بعد خمس سنوات واخذ امره يتعاظم من

(*) "الموارنة" نص محاضرة ألقيت على دفعتين في دير ما ضومط في رومية المتن في ١٢ و١٩.

(٢٦) اسطفان الدويهي، "تاريخ الازمنة..."، ص ٢٠١.

جديد. فحارب يوسف سيفا واستولى على بلاد جبيل والبترون عام ١٦١٨، ثم على جبة بشري عام ١٦٢١. واستمر في التوسع حتى شملت سيطرته الجزء الاكبر من البر الشامي. وباستيلاء فخر الدين على جبة بشري انتهى فيها أمر المقدمين بعدما بلغ سوء تصرفهم تجاه كنيستهم وأبناء طائفتهم حداً لا يطاق. وجعل فخر الدين آل الخازن وكلاء على الجبة، كما جعلهم وكلاء على بلاد جبيل. وكان آل الخازن قد تسلموا قبلاً حكم كسروان عن يد الأمير يونس معن، شقيق فخر الدين، وذلك عام ١٦١٥ عندما كان الأمير فخر الدين مقيماً في ايطاليا. فما أن أضيفت اليهم بلاد جبيل وجبة بشري حتى أصبحوا الاسرة الأولى بين الموارنة دون منازع. واتبع آل الخازن، تجاه طائفتهم، السياسة التي اتبعها آل حبيش قبلهم، فسهروا على تعزيز شأن الموارنة وخدمة مصالحهم المادية والمعنوية بشتى الوسائل.

السيطرة على كسروان ودير القمر

وانتهى أمر فخر الدين عام ١٦٣٣، اذ انهزمت جيوشه أمام العثمانيين ووقع هو في الاسر، فاقتيد إلى الآستانة حيث قتل بعد عامين. وبانتهاء حكم فخر الدين أعيدت المناطق الشمالية من جبل لبنان إلى ولاة طرابلس، وعيّن علي بن علم الدين، من أمراء الشوف، ملتزماً على المناطق الدرزية وكسروان. وكان علي بن علم الدين، على الارجح، من السلالة المعنية[٢٧]. الا انه كان يطمح إلى الحلول مكان فخر الدين في الإمارة، فسانده أمراء الشويفات وغيرهم من الدروز اليمنية المناوئين لفخر الدين واعتبروه زعيماً عليهم. وما ان تسلّم ابن علم الدين الإمارة حتى انقضّ على آل بحتر التنوخيين، زعماء

---

(٢٧) لعله كان من سلالة علم الدين بن معن المذكور في تاريخ ابن سباط تحت عام ٩٢٣ هـ.

القيسية وحلفاء فخر الدين في الغرب، فقضى على الأسرة بجميع أفرادها. وعادت الفتنة تشتعل في المناطق الدرزية بين القيسية واليمنية، واستمرت الاصطدامات الدامية بين الطرفين أربعاً وثلاثين سنة. وكان الموارنة طوال هذه الفترة، وعلى رأسهم آل الخازن وآل حبيش، يساندون الفريق القيسي، آملين في أن تعود الإمارة إلى آل فخر الدين.

وتسلّم زعامة الدروز القيسية بعد وفاة فخر الدين ابن اخيه، ملحم بن يونس، واستقرّ في الشوف يناهض آل علم الدين حتى وفاته عام ١٦٥٨. وقام بعده ابنه الأمير احمد، فأوقع الهزيمة بالدروز اليمنية خارج بيروت عام ١٦٦٧ واستولى على الإمارة. وكان آل علم الدين، منذ تسلّمهم الإمارة، قد فشلوا تماماً في ضبط المناطق الدرزية وكسروان وبرهنوا عن عدم أهليتهم للحكم. فلم تمانع الدولة العثمانية في عودة الإمارة إلى آل معن القيسيين. وكان العثمانيون قد فصلوا صيدا عن ولاية دمشق عام ١٦٦٠ وعينوا عليها بكلربكياً خاصاً لمراقبة البلاد الدرزية وجوارها، فلم يعد هناك خوف من استفحال أمر آل معن كما حصل في عهد فخر الدين.

وبعودة الإمارة إلى آل معن، عاد الموارنة إلى النزوح من المناطق الشمالية إلى كسروان والمناطق الدرزية هرباً من جور ولاة طرابلس. وكان هؤلاء قد اخذوا يسلطون آل حمادة من جديد على بلاد جبيل والبترون وجبة بشري، مما جعل الموارنة في هذه المناطق يشعرون بالضيق. وكان آل الخازن، في هذه الأثناء، قد استعادوا مكانتهم في كسروان، فجدّوا في شراء القرى والمزارع في الجرود من الشيعة، واخذ الموارنة النازحون من الشمال يستقرون فيها. وسرعان ما شعر الشيعة بالخطر من تكاثر الموارنة في جرود كسروان، وتعددت الاصطدامات بين الفريقين. الا أن الموارنة استمروا في التكاثر حتى سيطروا على المنطقة تماماً، ولم يبقَ للشيعة فيها بعد القرن الثامن عشر الا قرى قليلة[٢٨].

وفي الوقت ذاته الذي كان آل الخازن يمتلكون الأنحاء الشيعية من كسروان، كانت المناطق الدرزية إلى الجنوب تستقبل اعداداً ضخمة من الموارنة وغيرهم من المسيحيين النازحين من الشمال أو من الداخل الشامي.

---

(٢٨) انظر جرجس زغيب، "تاريخ عود النصارى الى جرود كسروان"، القاهرة، من دون تاريخ.

وما حلّ القرن الثامن عشر حتى اخذ الموارنة يفوقون الدروز عدداً في معظم هذه المناطق. وأحاط الأمير أحمد الموارنة بالعناية نفسها التي احاطهم بها فخر الدين، فتكاثروا حوله في دير القمر حتى اتخذت هذه البلدة، وهي قاعدة الإمارة الدرزية في الشوف، طابعاً مارونياً. وجعل الموارنة من دير القمر مركزاً تجارياً مزدهراً في حمى الأمير، يجمع فيه محصول الحرير من مختلف الانحاء وينقل منه إلى بيروت وصيدا للتصدير. وعام ١٦٨٣ قدم إلى دير القمر البطريرك اسطفان الدويهي ليحتمي بالأمير احمد من جور آل حمادة. وقد ذكر البطريرك ذلك في تاريخه إذ قال:

"في اول أيلول، من جور حكام جبة بشري... توجهنا إلى دير القمر، وضمنا من حضرة الأمير أحمد ابن معن قرية مجدل معوش. ثبتنا سنتين رمرمنا كنيستها وجملة مساكن. ثم ان اولاد الجبة ارتموا على حضرة الأمير بمكاتيب خضوع من اولاد الشيخ احمد (حمادة) انهم ما عادوا يبدلوا ولا يغيروا شروطهم معنا، فرجعنا معهم"[٢٩].

---

[٢٩] اسطفان الدويهي، "تاريخ الازمنة..." ص ٣٧٥.

وتوفي الأمير أحمد عام ١٦٩٧، وانقرضت به السلالة المعنية في البلاد، فاجتمع اعيان المناطق الدرزية واختاروا مكانه ابن اخته الأمير بشير الشهابي، من الأمراء الشهابيين السنيين في وادي التيم. ولربما كان الدروز، على وجه العموم، يفضلون إسناد الإمارة إلى امير درزي، الا أن الخصومات التقليدية بين الاسر الدرزية النافذة لم تسمح بذلك. فتمّ الاتفاق على تنصيب امير من غير أبناء الطائفة، ومن خارج بلاد الإمارة. ولعلّ الاسر الدرزية النافذة فضلت أن يكون الأمير غريباً عن الطائفة، لا دعامة شعبية له في البلاد، حتى لا يتمكن من وضع حدّ للزعامات المحلية كما كان يفعل الأمراء المعنيون. وما أن تمّ الاتفاق على اسناد الإمارة إلى بشير الشهابي، وانتقل هذا من وادي التيم إلى دير القمر، حتى

ورد الأمر من الاستانة بأن ينصب الأمير الصبي حيدر الشهابي، سبط الأمير احمد المعني، مكان جده، على أن يكون نسيبه بشير وكيلاً عنه في الحكم حتى يبلغ سن الرشد. وهكذا تسلّم الأمير بشير التزام المناطق الدرزية وكسروان حتى وفاته مسموماً عام ١٧٠٦، فخلفه الأمير حيدر.

وسرعان ما برهن الأمراء الشهابيون، في ضبطهم للبلاد، عن مقدرة لم يأنس لها الزعماء الدروز. وما ان تولى الأمير حيدر الإمارة بعد وفاة الأمير بشير حتى اخذ فريق من هؤلاء الزعماء يلتف حول أمراء الشويفات اليمنيين لمناوأته. وعام ١٧١٠ اتفق الدروز اليمنية مع والي صيدا على خلع الأمير حيدر، واستدعوا آل علم الدين من نواحي دمشق، حيث استقروا بعد هزيمة عام ١٦٦٧، للعودة إلى الشوف والحلول مكان الشهابيين في دير القمر. وهبّ الدروز القيسية وحلفاؤهم الموارنة لنصرة الشهابيين، والتقوا اليمنية عام ١٧١١ في عين دارا فأوقعوا بهم الهزيمة وقضوا على زعمائهم من آل علم الدين. واستتب الامر بعد هذه الموقعة للامير حيدر،

فانتزع معظم مناطق اليمنية من زعمائها ووزعها على انصاره من القيسية. واعترف في الوقت ذاته بمشيخة آل الخازن في كسروان، ومشيخة آل حبيش في قاطع غزير، فوضع هاتين الاسرتين على قدم المساواة مع المشيخات الدرزية في الجرد والغرب والشوف. وهكذا أصبحت الإمارة الشهابية شراكة اقطاعية بين المشايخ الدروز والموارنة يترأسها الأمير الشهابي السني كملتزم للبلاد.

وارتاح الموارنة إلى التنظيم الجديد الذي ساوى بينهم وبين الدروز في المكانة. ودعم الفلاحون والتجار منهم الإمارة الشهابية إذ وجدوا فيها ضمانة لهم ضد سطوة مشايخ الإقطاع. ولم يختلف آل الخازن وآل حبيش، وهم المشايخ الإقطاعيون، عن سائر الموارنة في دعمهم للإمارة، إذ ان هؤلاء المشايخ لم تكن لهم بين أبناء طائفتهم زعامة تقليدية عميقة الجذور كما كان لزملائهم الدروز، بل كانوا مدينين في زعامتهم الإقطاعية للأمراء الشهابيين. وكانت فرنسا، وهي آنذاك الدولة الكاثوليكية الكبرى في أوروبا، قد اخذت على عاتقها حماية الموارنة منذ أواسط القرن السابق. واخذ ملوكها يعينون مشايخ من

آل الخازن، وغيرهم من أعيان الموارنة، قناصل لهم في بيروت. وأصبحت للإمارة الشهابية، عن طريق الموارنة، صلة وثيقة بفرنسا، مما قوّى مركزها تجاه الدولة العثمانية. فزاد ذلك في اهتمام الأمراء الشهابيين بالموارنة، كما زاد هذا الاهتمام بدوره في تعلّق الموارنة بالشهابيين.

وحظي الأمير حيدر، بعد هزيمة اليمنية في عين دارا، بتأييد عارم من الدروز القيسية. الاّ ان هذا التأييد الدرزي لآل شهاب لم يدم طويلاً. فما ان خلف الأمير ملحم والده حيدر عام ١٧٣٢ حتى عاد الزعماء الدروز إلى المعارضة والمناوأة. وما كان ذلك الاّ لتذكير الأمير الشهابي، بأنه ليس إلا ملتزم جباية للدولة العثمانية قابلاً للعزل، لا يمكنه ضبط البلاد والاستمرار في الحكم إن لم ترضَ عنه الزعامات الدرزية. وامام هذه المعارضة من الدروز، اخذ الأمراء الشهابيون ينحازون شيئاً فشيئاً إلى جانب الموارنة. وكان الموارنة، على عكس الدروز، يجلّون الأمير الشهابي كصاحب حق وراثي في الحكم، ويرون في امارته ضمانة لكيان لبناني ينعمون في ظلّه

بالحرية والكرامة. واضطرّ الأمير ملحم، بسبب مقاومة الدروز له، إلى التخلي عن الحكم عام ١٧٥٤ لمصلحة اخويه منصور واحمد. وانتقل إلى بيروت حيث استقر محاطاً بأصدقائه الموارنة حتى وفاته عام ١٧٦١. وكان لملحم في بيروت أخ ثالث، هو علي، اعتنق المسيحية منذ زمن، فحذا أبناء ملحم حذوه وتنصّروا. ولم يطلّ الزمن حتى اخذ غيرهم من آل شهاب ينضم إلى الكنيسة المارونية، وكذلك انسباؤهم من آل أبي اللمع الدروز، أمراء المتن. وما إن بدأ الشهابيون المتنصّرون يتسلمون الحكم عام ١٧٧٠، عندما خلف الأمير يوسف بن ملحم عمه منصور، حتى أصبحت الإمارة الشهابية إمارة مارونية.

امتيازات كنسية ومكانة سياسية

وكانت الكنيسة المارونية في اواسط القرن الثامن عشر، حين انضمّ إليها أبناء الأمير ملحم، قد تطورت كثيراً عما كانت عليه من قبل. ففي غضون القرن السابع عشر اخذ خريجو المعهد الماروني في رومية يجلسون على كرسي البطريركية وينشطون في اعادة تنظيم كنيستهم وضبط طقوسها وانشاء المدارس في القرى لتعليم أبناء الرعية. وكذلك سعوا في انشاء رهبنة مارونية منظمة على غرار الرهبنات الغربية تتولى تدبير الاديرة المارونية وممتلكاتها والسهر على حاجات الشعب الروحية، فتنظمت بعنايتهم رهبنة القديس انطونيوس عام ١٦٩٤، في عهد البطريرك اسطفان الدويهي. وعام ١٧٣٦ عقد مجمع في دير اللويزة، في كسروان، لإصلاح نظام الكنيسة المارونية، فأقرّ هذا المجمع، في ما أقرّ،

تقسيم البطريركية المارونية ثماني أبرشيات يتولى احداها البطريرك مباشرة، ويعين لكل من السبع الأخرى مطران خاص. وكانت الكنيسة المارونية في جبل لبنان، حتى ذلك الوقت، منطقة واحدة يديرها البطريرك بمعاونة مطارنته. ولئن فشلت الكنيسة المارونية في تطبيق جميع مقررات مجمع دير اللويزة على الفور، فقد وضعت هذه المقررات الاسس التي تمّ عليها تنظيم الكنيسة في ما بعد. وفي غضون القرن الثامن عشر تأسست في كسروان، برعاية الكنيسة المارونية والارساليات الكاثوليكية، مدرستان هامتان، احداهما في عين طور (١٧٣٤) والأخرى في عين ورقة (١٧٧٤). وتخرّج من هاتين المدرستين عدد من الشبان الموارنة الذين دخلوا في خدمة الأمراء الشهابيين وغيرهم من الأسر النافذة، فأصبحوا طبقة مارونية متعلّمة ذات شأن في البلاد.

ورافق نمو الطائفة المارونية منذ أواخر القرن السادس عشر اهتمام جديد بتاريخها من قبل ابنائها، فانكبّ بعض خرّيجي معهد رومية وغيرهم من الاكليريكيين على دراسة التواريخ الزجلية التي وضعها

ابن القلاعي ونسجوا على منواله. وجدّ البطريرك اسطفان الدويهي، في النصف الثاني من القرن السابع عشر، في البحث عن آثار الموارنة، فوضع أول تاريخ منسق للطائفة وضبط سلسلة تاريخية لبطاركتها. وكانت العلاقات قد توطدت في تلك الاثناء بين الموارنة والإمارة الدرزية، فاهتم البطريرك الدويهي بتاريخ هذه الإمارة وعلاقة طائفته بها، وصنّف تاريخاً حولياً لبلاد الشام منذ دخول الفرنجة إليها في أواخر القرن الحادي عشر ركّز فيه على تاريخ المناطق الدرزية والمارونية من جبل لبنان. ونشط في القرن الثامن عشر عدد من المؤرخين الموارنة من أمثال يوسف مارون الدويهي ويوحنا بادنجانا وأنطون قياله وفيلبس الجميل، فجاء نشاطهم يعكس وعي الموارنة لهويتهم التاريخية وللمكانة البارزة التي أصبحت لهم في ظلّ الإمارة الشهابية.

ويبدو أن الامتيازات التي نعم بها الموارنة في حمى الأمراء أثارت حسد الطوائف المسيحية الأخرى في بلاد الشام. اذ كانت الدولة العثمانية تفرض على رؤساء جميع هذه الطوائف طلب التثبيت، عند انتخابهم، من

الاستانة، فيصبحون بذلك تابعين ادارياً للدولة وفقاً لنظمها المليّة. أما البطريرك الماروني، فبقي مستقلاً عن الدولة، اذ كان التثبيت يأتيه فقط من رومية. وفي عهد البطريرك اسطفان الدويهي سعى بطريرك اليعاقبة في حلب إلى أن يفرض طلب التثبيت السلطاني على البطريرك الماروني أسوة بغيره من رؤساء الكنائس الشرقية، فحال تدخل فرنسا دون ذلك وبقيت للكنيسة المارونية امتيازاتها. وفي القرن الثامن عشر سمحت الدولة العثمانية للطائفة الملكية الارثوذكسية في الكرسي الانطاكي بإضطهاد الروم الكاثوليك المنشقين عنها كما سمحت للكنيسة الأرمنية الغريغورية باضطهاد الارمن الكاثوليك، فلجأ عدد كبير من المضطهدين إلى جبل لبنان حيث حظوا بحماية البطريركية المارونية والأمراء الشهابيين. ويبدو أن الروم الأرثوذكس في منطقة الكورة نقموا على البطاركة الموارنة لاهتمامهم بأمر الروم الكاثوليك وأخذوا يحرضون ولاة طرابلس ضدهم، فلم يوفقوا في ذلك اذ كانت صلة الموارنة بالولاة، عن طريق آل الخازن، أقوى من صلة أهل الكورة بهم.

وما إن أخذ الشهابيون المتنصرون يتسلّمون الحكم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتى أصبح للموارنة، كطائفة مسيحية، مكانة سياسية فريدة من نوعها في البلاد العثمانية، وذلك بالاضافة إلى امتيازاتهم الكنسية. وذلك من الطبيعي أن يعتز الموارنة بنجاحهم هذا. إلا أنهم تمادوا في الاعتزاز[٣٠]، على ما يبدو، حتى أقلق ذلك جيرانهم الدروز كما أقلق، على الارجح، ممثلي الدولة في دمشق وصيدا وطرابلس. وكان الضعف قد ظهر في الدولة العثمانية منذ أواخر القرن السابع عشر، واخذت جيوشها تنهزم وتتراجع أمام جيوش النمسا وروسيا في حروب متتالية. فنتج عن هذا الفشل العسكري المتكرر توتر داخلي بلغ ذروته في الربع الأخير من القرن الثامن عشر. وانعكس هذا التوتر في نقمة إسلامية عارمة ضد الطوائف المسيحية في البلاد العثمانية، إذ كانت هذه الطوائف تعتبر مؤيدة للدول الأوروبية المسيحية المحاربة للسلطنة. ولربما أثارت علاقة الموارنة والإمارة الشهابية برومية وفرنسا الشكوك العثمانية بشكل خاص، فعمد العثمانيون إلى الحط من مكانة الإمارة

---

(٣٠) أنظر: Volney, Voyage en Egypte et en Syrie, Paris, ١٩٥٩, P. ٢٤٣.

الشهابية بالتعاون مع الزعماء الدروز الناقمين عليها، وذلك ابتداءً بعهد الأمير يوسف. وعندما تسلم أحمد باشا الجزار ولاية صيدا عام ١٧٧٥، ناقلاً قاعدتها إلى عكا، هم إلى تضييق الطوق على الإمارة الشهابية في جبل لبنان وإضعافها. إلا ان الظروف الدولية حالت دون قضائه عليها تماماً.

القائمقاميات وثورة الفلاحين

ففي ١٧٩٨ نزلت الجيوش الفرنسية مصر بقيادة نابوليون بونابرت وبدأت زحفها في العام التالي على بلاد الشام، فانشغلت الدولة العثمانية بها، كما انشغل بها أحمد الجزار. وما إن تمكن العثمانيون، بمساعدة بريطانيا، من إخراج الفرنسيين من مصر حتى قامت هناك دولة محمد علي باشا، فتوازنت القوى في بلاد المشرق بين الدولة العثمانية والدولة العلوية في مصر. وتمكن الأمير بشير الثاني، الذي خلف الأمير يوسف عام ١٧٨٨، من استغلال هذا الوضع لتقوية الإمارة اللبنانية من جديد. وكان آل جنبلاط وغيرهم من كبار زعماء الدروز قد تعاونوا مع الجزار ضدّه في أول عهده. فلمّا توفي عام ١٨٠٤، جدّ بشير في تحطيم الزعامات الدرزية والقضاء على أربابها. وكان المسيحيون في جبل لبنان عموماً،

والموارنة بشكل خاص، يؤيدون الأمير في سياسته هذه، فزادت نقمة الدروز عليهم. وكانت سيطرة الأمراء الشهابيين قد امتدت، منذ عهد الأمير يوسف، إلى المناطق المارونية في ولاية طرابلس ضمن بلاد الإمارة في عهد الأمير بشير. فأصبح الدروز في بلاد الإمارة أقلية ضئيلة تواجه أكثرية مارونية ساحقة، مما أضاف، ولا شك، إلى شعورهم القلق والنقمة.

واستمر الحال على ذلك حتى احتلّت جيوش محمد علي بلاد الشام عام ١٨٣٤، بالتعاون مع الأمير بشير، ثم أجبرت على الخروج منها عام ١٨٤٠ بعد أن تدخلت الدول الكبرى في الأمر، فأرغم الأمير بشير على التخلي عن الإمارة وأرسل إلى المنفى. وقامت في العام التالي أولى الاصطدامات الدامية بين الموارنة والدروز في المناطق الجنوبية، ففسحت هذه الاصطدامات في مجال القضاء على الإمارة الشهابية ووضع جبل لبنان تحت الحكم العثماني المباشر. وما أن تمّ ذلك في أوائل ١٨٤٢ حتى هبّ الموارنة، كنيسةً وشعباً، يطالبون بعودة الشهابيين إلى الحكم. فرفض العثمانيون ذلك رفضاً باتاً،

متذرّعين بعداء الدروز المعلن للأسرة الشهابية. وكانت بريطانيا، بسبب التنافس السياسي بينها وبين فرنسا في بلاد المشرق، تدعم موقف الدروز وتسهّل على الدولة العثمانية فرض سياستها في جبل لبنان.

إلا أن الحكم العثماني المباشر في البلاد لم يدم سنة كاملة. فقد رفض الموارنة التعاون مع الحاكم العثماني، ووضع عليه الزعماء الدروز شروطاً لم يتمكن من قبولها. فعدل العثمانيون عن التجربة وقرروا، بموافقة الدول الكبرى، تقسيم جبل لبنان قائمقاميتين، واحدة مسيحية تضمّ مناطق بشري والكورة والبترون وجبيل وكسروان والمتن، والثانية درزية تضم مناطق الجرد والغرب والشوف. وجاء هذا التقسيم، إلى حدّ ما، موافقاً لمصالح الزعماء الإقطاعيين الدروز، إذ أتاح لهم السيطرة على مناطقهم والتصرف بها كما يشاؤون. ولم يلحق بالدروز من التقسيم حيث يذكر، إذ لم يكن لهم في القائمقامية المسيحية إلا جالية صغيرة في المتن. أما الموارنة، فكانوا منتشرين في جميع انحاء جبل لبنان، بما فيها المناطق الدرزية حيث فاق عددهم عدد الدروز.

ووضع التقسيم الموارنة وغيرهم من المسيحيين في القائمقامية الدرزية تحت رحمة زعماء الإقطاع الدروز، فنقموا على هذا الترتيب واخذوا يطالبون بتعديلات تضمن لهم مصالحهم. ودعمت الكنيسة المارونية موقف أبنائها في القائمقامية الدرزية واخذت تشجعهم على النهوض في وجه الزعماء الدروز. وكان من الطبيعي أن يرى الدروز في ذلك تحدياً طائفياً لهم، فهبوا لنصرة زعمائهم وتكرّرت الاصطدامات الدامية بينهم وبين الموارنة وغيرهم من المسيحيين في المناطق المختلطة.

وحاول آل الخازن وآل حبيش، في هذه الاثناء، التمثل بالزعماء الدروز واستغلال ضعف حكم القائمقامين لتقوية سيطرتهم الإقطاعية على كسروان، فأخذ الفلاحون ينتظمون لمقاومتهم بتشجيع من الكنيسة. وكان البطاركة الموارنة، منذ عهد البطريرك يوسف حبيش (١٨٢٣-١٨٤٥)، قد جعلوا مقرّهم الشتوي في دير سيدة بكركي، في كسروان، فصار بإمكانهم متابعة الاحداث في هذه المنطقة، وفي المناطق الدرزية إلى الجنوب، عن كثب. وما ان حلّ عام ١٨٥٨ حتى ثار الفلاحون في كسروان

على آل الخازن وآل حبيش وأطاحوا بالسيطرة الإقطاعية على منطقتهم. وتشجع المسيحيون في القائمقامية الدرزية من نجاح ثورة الفلاحين في كسروان، فراحوا يستعدون لثورة مماثلة في مناطقهم. وكان لا بدّ من أن تتخذ الثورة في هذه المناطق طابعاً طائفياً. ففيما استعدّ الموارنة، بتشجيع من أرباب كنيستهم والتعاون مع الطوائف المسيحية الأخرى، لخلع نير الإقطاعية الدرزية، أخذ الدروز يلتفون حول زعمائهم الإقطاعيين ويحتاطون للأمر بالاتفاق مع السلطات العثمانية المحلية. وفي اواخر الربيع من عام ١٨٦٠، باغت الدروز المسيحيين المقيمين في مناطقهم، فانقضوا عليهم بالتعاون مع الحاميات العثمانية وأهلكوا منهم أعداداً كبيرة.

وليس هناك من شك في أن الكنيسة المارونية كانت مسؤولة نوعاً ما عن الكارثة التي حلّت بالطائفة وبسائر المسيحيين في المناطق الدرزية عام ١٨٦٠. ذلك أن المذابح التي تعرض لها المسيحيون على أيدي الدروز في ذلك العام كانت إلى حدّ كبير ردّة فعل لسياسة التحدي التي اتبعها الموارنة تجاه الإقطاعية الدرزية بتشجيع من أرباب الكنيسة. على أن تحدّي الموارنة وكنيستهم لمصالح الإقطاع كان يمثل وجهة نظر أكثر تجاوباً وتلاؤماً مع متطلبات العصر واكثر تطلعاً إلى المستقبل من وجهة نظر الزعامات الدرزية. ففيما كانت هذه الزعامات تصرّ على الابقاء على تقاليد وحقوق اقطاعية موروثة تعرقل نمو البلاد وتمنع اعادة وحدتها السياسية، كان الموارنة يشدّدون على ضرورة إلغاء نظام القائمقاميتين

والاستعاضة عنه بنظام اكثر فعالية يعيد وحدة الكيان اللبناني، ويضع حدّاً لنفوذ الأسر الإقطاعية، بما فيها الأسر المارونية، ويؤمّن مصالح الطبقة الوسطى الناشئة في مختلف انحاء الجبل، وعلى الأخص في كسروان والمناطق الدرزية المنتجة للحرير. وكانت فرنسا تدعم موقف الموارنة من الخارج، إلاّ أن مساندة بريطانيا للاقطاعية الدرزية وإصرار الدولة العثمانية على ابقاء نظام القائمقاميتين حال، حتى ١٨٦٠، دون إحداث أي تغيير يتلاءم مع المطالب المارونية.

وجاءت الكارثة في ذلك العام تعطي الدول الأوروبية البرهان الأكيد على فشل نظام القائمقاميتين في جبل لبنان، وتفسح لفرنسا في مجال التدخل المباشر لفرض حلّ يضمن مصالح الموارنة والطوائف المسيحية الأخرى في البلاد. وفيما احتلّت فرق من الجيش الفرنسي بيروت والمناطق الدرزية من الجبل إثباتاً للوجود، تمّ الاتفاق بين الدول الأوروبية والاستانة على الاعتراف بكيان ممتاز للبنان يتألف من جميع المناطق المسيحية والدرزية من الجبل وينعم باستقلال اداري ضمن الدولة العثمانية. وقضى الاتفاق بأن يتولى الحكم في جبل لبنان

متصرّف مسيحي غير لبناني يعينه السلطان من بين رعاياه الكاثوليكيين بموافقة الدول الكبرى، فيقوم هذا المتصرف بمهامه بالتعاون مع مجلس اداري منتخب يمثل جميع الطوائف في البلاد. وألغى النظام الجديد جميع الصلاحيات الإقطاعية في المناطق، وقسم البلاد إدارياً سبعة اقضية جاعلاً على كل منها قائمقاماً يعيّنه المتصرّف. ونجحت هذه الترتيبات في خلق إطار داخلي صالح لنموّ البلاد، فأصبح جبل لبنان في عهد المتصرّفين، من بين المقاطعات العثمانية، مضرب المثل في حسن التنظيم والازدهار والرقي.

وخرج الموارنة من محنة ١٨٦٠ وقد تعلّموا منها درساً بليغاً. فوضعوا الاحقاد جانباً وأقبلوا، منذ إعلان المتصرفية في العام التالي، على التعاون مع الدروز لإنجاح التجربة اللبنانية الجديدة. وكانت للموارنة مآخذ على نظام المتصرفية، أهمها أن هذا النظام اخذ الحكم من أيدي اللبنانيين ووضعه في أيد غريبة. إلاّ أن الترتيبات الادارية التي أوجدها النظام الجديد في البلاد أتاحت لعدد كبير من اللبنانيين الاشتراك مع المتصرفين في الحكم عن طريق المجلس الاداري والقائمقاميات وغيرها من

الوظائف. وحظيَ الموارنة من ذلك، وهم الطائفة الكبرى في البلاد، بحصّة الأسد. وكان في ظلّ المتصرفية أن أخذ الموارنة ينضجون سياسياً كفئة حاكمة ويتدرّبون في المسؤولية، فتحولت عصبيتهم الدينية تدريجاً إلى ولاء للبنان كوطن يجمع بينهم وبين الطوائف الأخرى في البلاد، ضامناً مصالح كل طائفة ومؤمّناً العيش الحرّ الكريم للجميع. وهكذا نشأت الفكرة اللبنانية وترعرعت في كنف عصبية الموارنة. فغدت الكنيسة المارونية القوام الأساسي لهذه الفكرة والمؤسسة المجسدة لها في غياب دولة لبنانية تقوم بهذه المهمة.

واعترى الموارنة في عهد المتصرفية شعور بضيق الرقعة اللبنانية، فأخذوا يسعون إلى توسيعها مطالبين بالموانئ البحرية والمناطق المحاذية للجبل إلى الشمال وبعلبك وسهل البقاع ووادي التيم وجبل عامل. وكانت سطوة الأمراء المعنيين والشهابيين، في القرون السابقة، قد نفذت نوعاً ما إلى جميع هذه المناطق، فنزحت إليها أعداد كبيرة من الموارنة وغيرهم من المسيحيين، مما جعلها شبيهة في تركيبها الطائفي بجبل لبنان. وكان ضمّ هذه المناطق والموانئ البحرية إلى رقعة المتصرفية

ضرورياً بالفعل من الناحية الاقتصادية، إذ لم تكن لجبل لبنان وحده امكانات زراعية وتجارية كافية لسدّ حاجاته واشغال الطاقة البشرية فيه. وكان انتشار التعليم في البلاد ابتداءً بالنصف الثاني من القرن التاسع عشر، على يد الإرساليات الاجنبية وبعض المؤسسات الوطنية، قد زاد في نمو الطاقة اللبنانية، فأخذ اللبنانيون المتعلمون يهجرون لبنان بأعداد كبيرة بحثاً عن عمل أو نشاط يتلاءم مع امكاناتهم، بينما هجرت لبنان آلاف من غير المتعلمين سعياً وراء الرزق في مختلف انحاء العالم. وجاءت الهجرة اللبنانية على هذا النطاق تؤكد ضرورة توسيع الرقعة اللبنانية وتزيد في المطالبة بها من قبل قادة الموارنة[٣١].

غير أن المتصرفية اللبنانية بقيت على حالها، دون توسيع، حتى انتهى امرها مع الحرب العالمية الأولى. فألغى العثمانيون العمل بنظامها عام ١٩١٥، بعد دخولهم الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا، ووضعوا جبل لبنان تحت الحكم العسكري. واغتنمت الدولة العثمانية

---

[٣١] أنظر الكتاب الذي وضعه بولس نجيم، تحت اسم مستعار، حول "القضية اللبنانية": M. Jouplain, La question du Liban…, Paris, ١٩٠٨.

فرصة الحرب لا لإلغاء الامتيازات اللبنانية فحسب، بل ايضاً لإلغاء امتيازات الكنيسة المارونية. فأرغم البطريرك الياس الحويك عام ١٩١٦ على طلب البراءة من الاستانة، ووردته هذه البراءة في منتصف العام التالي. وكانت الدولة العثمانية قد حاولت إرغام البطاركة الموارنة على طلب التثبيت السلطاني منذ قيام نظام المتصرفية، فلم توفّق في ذلك بسبب تدخل فرنسا في الأمر.

فرنسا تحقّق حلم الموارنة

وانتهى الوجود العثماني في الولايات السورية بانتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨. واحتلّت فرنسا بيروت وجبل لبنان والمناطق المجاورة. ولم تمضِ سنتان على هذا الاحتلال حتى حققت فرنسا حلم الموارنة في اول ايلول ١٩٢٠ بإعلانها دولة لبنان الكبير، بالحدود الحاضرة، كدولة مستقلة تحت الانتداب الفرنسي. وفي ٢٣ أيار ١٩٢٦ أقرّ لهذه الدولة دستور جعل منها جمهورية لبنانية. فقامت هذه الجمهورية تجسّد الفكرة التي نادى بها الموارنة منذ عهد المتصرفية وتحلّ مكان الكنيسة المارونية في القيادة الوطنية. واستقلّت الجمهورية اللبنانية عن فرنسا بعد عام ١٩٤٣، وأصبحت في عهدة اللبنانيين وحدهم، فاجتازت المراحل الأولى من الاستقلال بنجاح وتمكّنت من المحافظة على كيانها وعلى نظمها

الديموقراطية الحرة برغم الصعوبات والأخطار الكثيرة التي كانت، ولا تزال، تحيط بنموها.

وكان من الطبيعي أن يتسلّم الموارنة، كمواطنين لبنانيين، دفّة الحكم في الجمهورية التي كان لهم الدور الأساسي في خلقها. وكان من الطبيعي أيضاً أن تستمر الكنيسة المارونية في اهتمامها بالشؤون اللبنانية العامة وغيرتها على الكيان اللبناني الذي سعت جهدها، عبر القرون، إلى تحقيقه. إلاّ أن الفكرة اللبنانية، وإن يكن الموارنة هم الذين دعوا إليها في الأصل، تفترض مبدئياً ألا يكون لبنان وقفاً على الموارنة وحدهم، بل على جميع اللبنانيين على السواء، شرط أن يتحمّل الجميع مسؤولياتهم تجاه الوطن اللبناني والقيَم الإنسانية التي يرتكز عليها. وقد شاءت الاقدار أن تكون، من ضمن مسؤوليات الطائفة المارونية، مهمة حمل الرسالة اللبنانية عبر قرون طويلة مظلمة من تاريخ الشرق، ونقلها إلى سائر أبناء البلاد عندما سمحت الظروف بذلك.

فالموارنة الذين تمكّنوا عبر العصور، وهم الشعب الصغير، من المحافظة على هويتهم التاريخية عن طريق

الثبات في الموقف، والكفاح المستمر ضد الجور والتعلم من الأخطاء، والحكمة في انتقاء الاصدقاء والحلفاء، والاستعداد للتفاهم مع الغير، والوفاء لكل من مدّ اليهم يوماً يد المساعدة وأظهر نحوهم التفهم والعطف، تمكنوا في الوقت ذاته، دون سابق تصوّر أو تصميم، من المحافظة على حق الإنسان في الحرية والعيش الكريم، ومن المساهمة في خلق وطن يضمن هذا الحق لأبنائه. والجمهورية اللبنانية التي تجمع اليوم بين اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم تستمر، عن وعي، في حمل الرسالة التي حملها الموارنة في الماضي تلقائياً. وقد تأتي ظروف بعد تسمح للبنانيين بأن ينقلوا هذه الرسالة إلى غيرهم.

كتبت هذه الدراسة أصلاً عام ١٩٦٩ وهي مستقاة من محاضرتين ألقيتهما في دير مار ضومط في رومية المتن- لبنان. ثمّ طلبها منّي الصديق الشاعر يوسف الخال لإصدارها في ملف النهار في العام التالي. وهكذا كان. وقد قمت مؤخّراً بتصحيح النصّ وتدقيقه للطبعة الجديدة التي تقدمها دار نلسن للنشر إلى القارئ.

كمال الصليبي

ISBN 978-9953-0-2106-5

9 789953 021065

دار نلسن